الفصل الثالث

منهجه في تقرير مسائل الإيمان

تعد مسائل الإيمان من أوائل القضايا التي وقع الخلاف في مسمياتها في هذه الأمة، وتعددت فيها الأقوال وتنوعت، ابتداءً بخلاف الخوارج للصحابة في مسألة عصاة الموحدين وإخراجهم من الإسلام واستحلال دمائهم ، ثم خلاف المعتزلة لأهل السُّنَّة وقولهم بالمنزلة بين المنزلين، ثم خلاف المرجئة وقولهم : إن الفاسق مؤمن كامل الإيمان ، وما تبع ذلك من تفريعات حول تعريف الإيمان وحقيقته وعلاقة العمل به ، وزيادته ونقصانه ، وغيرها من المسائل .

وسأذكر هنا أبرز قضايا الإيمان التي حصل الخلاف فيها بين الفرق ، مبينًا رأي أهل السُّنَّة والجماعة وموقف سيد قطب من هذه القضايا وذلك في المباحث الآتية:

المبحث الأول : تعريف الإيمان وبيان حقيقته .

المبحث الثاني : ثمرات الإيمان والتوحيد وآثاره في الحياة .

المبحث الثالث : زيادة الإيمان ونقصانه وعلاقته بالإسلام .

المبحث الرابع : الكبائر وأحكام مرتكبيها .

المبحث الخامس : التكفير .

المبحث الأول

تعريف الإيمان وبيان حقيقته

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : تعريف الإيمان لغة وشرعًا .

المطلب الثاني : حقيقة الإيمان وعلاقته بالعمل عند سيد قطب .

المطلب الأول

تعريف الإيمان لغة وشرعًا

تمهيد :

عند البحث في المعاجم اللغوية عن معاني الحقائق الشرعية لا بد من التنبه إلى أمر مهم جدًا وهو أن المعاجم اللغوية وضعت لضبط الألفاظ لا لتحديد المعاني، وإذا حاولت تحديد المعنى فإنها لا تبالي بأن تعرف الشيء بنفسه أو بأنه غير ضده ، أو ببعض معانيه كقولهم : الدواء ما يتداوى به ، والحلال ضد الحرام ، والدعاء : النداء، مع أنه ليس كل دعاء نداء ونحو ذلك .

وبالتالي فإن الاستدلال بالمعاني اللغوية على الحقائق الشرعية لا يكون بدلالة المطابقة [١] ، لأن الحقائق الشرعية في الأعم الأغلب تكون أخص من الإطلاقات اللغوية ، وذلك بإضافة القيود والشروط الشرعية إلى مدلولات الألفاظ اللغوية، وليس معنى هذا إهمال الدلالات اللغوية ، وإنما لا بد من النظر في مراد الشارع وإطلاقاته ، والمستمر المعهود من مراده بهذا اللفظ أو ذاك ، فنفسر الحقائق الشرعية على ضوء مراد الشارع ولا نقتصر على معنى من معاني اللفظ الذي قد انضم إليه في العرف الشرعي ما يخصصه ويقيده ويحكم عليه ، ومن ذلك لفظ الإيمان.

أولا: الإيمان في اللغة :

تقول المعاجم اللغوية إن الإيمان هو: " التصديق " [٢] ، ولكن هل التصديق مطابق للفظ " الإيمان"؟ وهل كل تصديق إيمان ؟ الحقيقة أن ثمة فروق بين " آمن

---

(١) دلالة المطابقة : هي دلالة اللفظ على تمام معناه . انظر : شرح المسلم ، للملوي ، بهامش حاشية الصبان . مطبعة مصطفى الحلبي – مصر – ط٢ – عام ١٣٥٧هـ ، ص ٥١، ٥٢ .

(٢) تهذيب اللغة للأزهري ، مطبعة البابي الحلبي – القاهرة – ط٢ ، عام ١٣٨٩هـ ، ١٥/ ٥١٣ ، والقاموس المحيط ، للفيروز أبادي ، ٤/ ١٩٩ ، ولسان العرب لابن منظور ١/ ٢٢٢ ، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس – دار الجيل – بيروت ب٠ت ١/ ١٣٣ .

" و " صدق " ، **منها:**

١- أن " آمن " يتعدى بالحرف ، إما بالباء مثل قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾[١]، أي بمصدق، وقوله تعالى:﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[٢]، وإما باللام مثل قوله تعالى:﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ﴾[٣] فيكون بمعنى التصديق .

أما إذا تعدى بنفسه فيكون معناه التأمين : أي إعطاء الأمان كقولـه تعالى : ﴿ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾[٤] فهو ضد أخافه ، أما " صدَّق " فإنه يتعدى بنفسه دون حرف كقولنا " صدّقه ".

٢- من حيث الاشتقاق اللغوي نجد أن الإيمان مشتق من الأمن ،الذي هو ضد الخوف [٥] ، فآمن أي : صار داخلًا في الأمن ، فهو متضمن مع التصديق معنى الائتمان والأمانة ، كما قال إخوة يوسف ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[٦] أي : لا تقر بخبرنا ولا تثق به ولا تطمئن إليه ولو كنا صادقين ، فالتصديق وحده لا يدل على ذلك [٧] .

٣- أن الإيمان لا يقال إلا في الأمور الغيبية التي تعتمد على أمانة المخبر، أما المشاهد المحسوس فيقال فيه : صدوق .

٤- أن مقابل الإيمان الكفر ، ومقابل التصديق : الكذب .

فالخلاصة إذن:أن الإيمان تصديق وزيادة،وهو إلى الإقرار أقرب منه إلى التصديق[٨].

---

(١) سورة يوسف ، الآية ١٧ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٨٥ .
(٣) سورة العنكبوت ، الآية ٢٦ .
(٤) سورة قريش ، الآية ٤
(٥) المفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني ، ص ٩٠- ٩١ .
(٦) سورة يوسف ، الآية ١٧ .
(٧) انظر : مجموع فتاوى ابن تيميه ، ٧/ ٢٩٢ .
(٨) بسط القول في هذا المعنى شيخ الإسلام ابن تيميه في عدة مواضع منها مجموع الفتاوى ٧/ ١٢٢، والإيمان ، المكتب الإسلامي - بيروت - ط٣- ١٤٠٨هـ ، ص ٢٧٦ ، وما بعدها .

وهذا هو ما أكد عليه – سيد قطب – رحمه الله – ، فإنه لم يذهب إلى أن الإيمان هو التصديق فقط ، بل قرر أنه تصديق وإذعان ، مع ثقة واطمئنان .

* يقول سيد : " والتعبير عن عدم التصديق والثقة والائتمان والاطمئنان بقوله تعالى: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ﴾[١]، ذو دلالة خاصة، فالإيمان تصديق وثقة وائتمان واطمئنان، تصديق بالقول ، وائتمان بالعقل ، واطمئنان بالقلب وثقة من المؤمن بربه، وثقة متبادلة بينه وبين المؤمنين معه ، وللتعبير القرآني دائمًا دلالته وإيحاؤه "[٢].

* ويقول أيضًا :" وفعل الإيمان حين يعدى باللام يعني الاطمئنان والثقة "[٣]

* ويقول أيضًا : فقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ ﴾أي في التوحيد وفي الدينُ ﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾[٤]، والتعبير بالاتباع ذو مغزى هنا، فليس هو مجرد التصديق إنما هو الإتباع "[٥].

ويقول أيضًا : " فالإيمان تصديق القلب بالله وبرسوله ، التصديق الذي لا يرد عليه شك ولا ارتياب، التصديق المطمئن الثابت المستيقن الذي لا يتزعزع ولا يضطرب، ولا تهجس فيه الهواجس، ولا يتلجلج فيه القلب والشعور "[٦].

ثانيًا : الإيمان في الشرع

اختلف الناس فيما يقع عليه اسم الإيمان اختلافًا كثيرًا :

١ – جمهور أهل السُّنَّة والجماعة على أن الإيمان : " تصديق بالجنان ، وإقرار باللسان

(١) سورة التوبة ، الآية ٩٤ .
(٢) في ظلال القرآن ، ص ١٦٩٥ .
(٣) المصدر السابق ، ١/ ٤١٥ .
(٤) سورة آل عمران ، الآية ٢٠ .
(٥) في ظلال القرآن ، ١/ ٣٨٠.
(٦) المصدر السابق ، ٦/ ٣٣٤٩ .

وعمل بالجوارح والأركان " [١] مع اختلاف عباراتهم في ذلك ، كقول بعضهم " الإيمان قول وعمل " ويقصدون : قول القلب واللسان ،وعمل القلب واللسان والجوارح [٢].

٢ - المرجئة تقول : الإيمان هو تصديق بالجنان وقول باللسان ، وهذا مشهور عن بعض الفقهاء[٣]، فالأعمال غير داخلة في مسمى الإيمان .

٣ - بعض الماتريدية والأشاعرة يقولون: الإيمان هو: التصديق القلبي ، وأما الإقرار باللسان فركن زائد [٤].

٤ - الكرامية تقول : الإيمان هو الإقرار باللسان فقط [٥].

٥ - الجهمية تقول : الإيمان هو المعرفة بالقلب [٦].

---

(١) وهذا القول مروي عن : ابن مسعود وحذيفة وعمر وعلي ومعاذ وابن عباس وأبي الدرداء من الصحابة ، والحسن وعمر بن عبد العزيز وسعيد بن جبير ، وزيد بن أسلم ومجاهد من التابعين ، وعبد العزيز بن أبي سلمة والليث والأوزاعي والثوري ، وابن عيينة و الفضيل بن عياض من الفقهاء ، وهو قول الأئمة الثلاثة مالك والشافعي وأحمد .

انظر :

١ - شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة لأبي القاسم اللالكائي دار طيبة - الرياض ، ط٦ عام ١٤٢٠ هـ ٤/ ٩١١

٢ - التمهيد لابن عبد البر ، ٩/ ٢٣٨ .

٣ - مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ، ص ٢٩٣ .

٤ - شرح السُّنَّة للبغوي ، ١/ ٣٩ .

٥ - مجموع فتاوى ابن تيميه ، ٧/ ٣٠٩ .

٦ - فتح الباري لابن حجر ، دار الفكر - بيروت طبعة عام ١٤١١ ، ١/ ٤٧ .

٧ - الإيمان لابن منده ، ١/ ٣٦٢ .

٨ - الفصل لابن حزم ، ٣/ ١٨٨ .

٩ - الشريعة للآجري ، ص ١١٨ .

١٠ - شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ص ٤٥٩ .

(٢) انظر : الشريعة للآجري ، ص ١١٩ ، وشرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة للألكائي ، ٤/ ٩١١ .

(٣) انظر : أصول الدين للبغدادي ، ٢٤٨، والمواقف في علم الكلام للإيجي ص ٣٨٤ ، والإرشاد للجويني ص٣٣٣، وشرح العقيدة الطحاوية ص٤٥٩ .

(٤) المصادر السابقة .

(٥) انظر : السُّنَّة للخلال ، ص ٢٦٥ ، ومقالات الإسلاميين للأشعري ، ص ١٤١ ، والشريعة للآجري ، ص ١٣١، والفرق بين الفرق ، للبغدادي ، ص ٢٢٣ ، ومجموع الفتاوى لابن تيميه ،٧/ ٥٠٩ ، وشرح العقيدة الطحاوية ص ٤٦٠.

(٦) المصادر السابقة نفسها.

٦ - الخوارج والمعتزلة يقولون:الإيمان فعل الطاعات المفترضة كلها بالقلب واللسان وسائر الجوارح ، فهم يوافقون أهل السُّنَّة والجماعة في التعريف فقط، ويخالفونهم في جعلهم الإيمان شيئًا واحدًا إذا ذهب بعضه ذهب كله[1].

والراجح من الأقوال السابقة هو قول أهل السُّنَّة والجماعة من أن الإيمان اعتقادٌ وقولٌ وعملٌ، للأدلة الثابتة من الكتاب والسُّنَّة والإجماع [2] والتي تدل على دخول الأعمال في مسمى الإيمان.

(١) انظر : الإيمان لابن منده ، ١/ ٣٣١ ، والإرشاد للجويني ، ص ٣٣٣ ، وفتاوى ابن تيميه ، ٧/ ٥١٠ ، والمواقف للإيجي ، ص ٣٨٥،

(٢) تنظر الأدلة في : الإيمان لأبي عبيد ، ص ١١ و شرح أصول الاعتقاد للألكائي ، ٤/ ٩١١ .

المطلب الثاني

حقيقة الإيمان وعلاقته بالعمل عند سيد قطب

أولا : يقرر سيد قطب – رحمه الله – أن " مدلول الإيمان – في القرآن – واضح وجازم لا تميع فيه ، ولا تفصيص [١] ، ولا تأويل مما استحدثته التطويلات الفقهية فيما بعد ..

ويرى أن السبب في هذا الخلاف هو : وجود الفرق والمذاهب والتأويلات ودخول الناس في الجدل والفروق المنطقية الذهنية ، وكذا بسبب الفرق المذهبية والسياسية ودخول الناس في الاتهامات ودفع الاتهامات ، حيث صار النبز بالكفر، ودفع هذا النبز لا يقومان على الأصول الواضحة البسيطة لهذا الدين ، إنما يقومان على الغرض والهوى ومكايدة المنافسين والمخالفين! عندئذٍ وجد من ينبز مخالفيه بالكفر لأمور فرعية ، ووجد من يدفع هذا الاتهام بالتشدد في التحرج والتغليظ على من ينبز غيره بهذه التهمة ، وهذا وذلك غلوٌ سببه تلك الملابسات التاريخية،أما دين الله فواضح جازم لا تميع فيه ولا تفصيص ولا غلو " ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل "[٢]وكل ما وراء ذلك فهو من صنع تلك الخلافات والتأويلات [٣].

ثانيا: يوافق سيد قطب – جمهور أهل السُّنَّة والجماعة – في تعريف الإيمان وعلاقته بالعمل، حيث يرى أن الإيمان الحق مركب من الاعتقاد والقول والعمل ، وقد أكد على هذا في مواضع متعددة من الظلال وغيره ويمكن عرض بعض أقواله فيما يأتي :

١- **يقرر- سيد- في أكثر من موضع** أن " الإيمان هو ما وقر في القلب وصدقه

---

(١) من معاني التفصيص : الالتواء ، انظر : لسان العرب ١٠/ ٢٧٢ .

(٢) الأثر رواه ابن أبي شيبة في المصنف ١٣ / ٥٠٤ ، وغيره عن الحسن البصري ، وهو صحيح الإسناد . انظر أقوال التابعين في مسائل الإيمان والتوحيد . عبد العزيز المبدل . دار التوحيد – الرياض . ط١ عام ١٤٢٤ هـ / ٣/ ١١٢٤ ، ١١٥٢ .

(٣) في ظلال القرآن ، ٣/ ١٥٢٠ بتصرف يسير .

العمل" [١]،ففي ظلال قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٢]. يقول : "فلابد للإيمان من صورة عملية واقعية ، يتجلى فيها ، ليثبت وجوده ويترجم عن حقيقته ، وكما قال رسول الله ﷺ : " ليس الإيمان بالتمني، ولا بالتحلي ولكن هو ما وقر في القلب وصدقه العمل " [٣] ، ومن ثم يرد مثل هذا التعقيب كثيرًا في القرآن لتقرير هذا المعنى ، الذي يقرره قول رسول الله ﷺ ولتعريف الإيمان وتحديده، وإخراجه من أن يكون كلمة تقال باللسان أو تمنيًا لا واقعية له في عالم العمل والواقع" [٤].

٢- **يقول :** " والإيمان ليس كلمات تقال، ولا مشاعر تجيش ، ولا شعائر تقام ، ولكنه طاعة لله والرسول ، وعمل بمنهج الله الذي يحمله الرسول .. يقول الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن قيم الجوزية في كتابه " زاد المعاد في هدي خير العباد " : " ومن تأمل في السير والأخبار الثابتة في شهادة كثير من أهل الكتاب والمشركين له ﷺ بالرسالة وأنه صادق ، فلم تدخلهم هذه الشهادة في الإسلام ، علم أن الإسلام أمرٌ وراء ذلك ، وأنه ليس مجرد المعرفة فقط ، ولا المعرفة والإقرار فقط ، بل المعرفة والإقرار والانقياد والتزام طاعته ودينه ظاهرًا وباطنًا " [٥].

٣- **ويقول أيضًا :** " والدين الذي يقبله الله من الناس ليس هو مجرد تصور في العقل، ولا مجرد تصديق في القلب - إنما هو القيام بحق هذا التصديق وذلك التصور - بتحكيم منهج الله في أمر العباد كله " ، " وليس مجرد الاعتقاد بالقلب ولا الشهادة باللسان " ، " فليس اعتقادًا أو شعورًا فحسب ولكن كذلك عملًا وطاعة وإتباعًا للمنهج العملي المتمثل في أحكام الكتاب .. " [٦].

٤- **ويقول أيضًا :** " والتوحيد ليس هو مجرد التصديق ، إنما هو الإتباع ،.. والتعبير

---

(١) المصدر السابق ، ١/ ٣٤٣ ، ٣/ ١٤٧٤ ، ١٥٢٠ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية ١

(٣) لا يصح رفع الحديث إلى الرسول ﷺ وإنما هو من قول الحسن البصري كما سبق في الصفحة السابقة ، انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للألباني ، مكتبة المعارف - الرياض ، ط٥ ، ١٤٠٨ هـ ٣/ ٢١٧ برقم ١٠٩٨ .

(٤) في ظلال القرآن ، ٣/ ١٤٧٤ .

(٥) المصدر السابق ، ١/ ٣٨٧ .

(٦) المصدر السابق ، ١/ ٣٧٧- ٣٧٨ بتصرف .

بقـوله تعالى : ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾ ذو مغزى ، فليس هو مجرد النطق باللسان ، أو الاعتقاد بالجنان إنما هو كذلك الاستسلام ، استسلام الطاعة والإتباع "[1].

٥- يقول أيضًا : " وقد كانت العصبة المسلمة الأولى تعلم أن للإيمان حقيقة لا بد أن يجدها الإنسان في نفسه ، وأنه ليس الإيمان دعوى ، ولا كلمات لسان ، ولا هو بالتمني ، فقد روى: " أن الحارث بن مالك الأنصاري [2] مرَّ برسول الله ﷺ ، فقال له : " كيف أصبحت يا حارث ؟ " قال : أصبحت مؤمنًا حقًا . قال : " انظر ما تقول ، فإن لكل شيء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ ، قال : عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي ، وأظمأت نهاري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها . فقال : يا حارث عرفت فألزم " ثلاثًا [3] . فالإيمان مشاعر وراءها عمل وحركة ، وليس كلمة تقال باللسان ومن ورائها واقع يشهد بعكس ما يقوله اللسان " [4].

٦- ويقول أيضًا: " والإيمان الحق هو المستكن في الضمير ، وإلى جواره العمل الظاهر في الحياة ، فهو ثمرة الإيمان الدالة على وجوده وحيويته وانبعاثه " [5].

٧- ويقول أيضًا: " فمن مقتضيات الإيمان أن ينبثق من القلب في صورة العمل الصالح..وهذا ما يجب أن يدركه من يدعون الإيمان" [6]، " ومن المبادئ الكلية في الإسلام أنه لا قيمة لقول بلا عمل فالعمل هو المعتبر، أو هي الوحدة بين الكلمة المنطوقة والحركة الواقعة وهي مناط الحكم والتقدير" [7].

٨- وعند تفسير آية الربا يقول: " والنص يعلق إيمان الذين آمنوا على ترك ما بقي

---

(١) المصدر السابق ، ١/ ٣٨٠- ٣٨١ .

(٢) هو: هو الحارث بن مالك الأنصاري صحابي ، انظر ترجمته في : أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ، دار الفكر - بيروت ، طبعة عام ١٩٩٣ م ، ١/ ٤٧٠ .

(٣) رواه الطبراني والبيهقي في شعب الإيمان ٢٢/ ١٦ وسنده ضعيف . انظر : موسوعة الأحاديث والآثار الضعيفة والموضوعة ، مجموع مؤلفين ، مكتبة المعارف - الرياض ،ط١ عام ١٤١٩ هـ ٦/ ٣٦ .

(٤) في ظلال القرآن ، ٣/ ١٤٧٨ بتصرف.

(٥) في ظلال القرآن ، ٦/ ٣٢٨١ بتصرف يسير .

(٦) المصدر السابق ، ١/ ٨٦ ، ٧٥ .

(٧) المصدر السابق ، ١/ ٩١ .

من الربا ، فإنه لا إيمان بغير طاعة وانقياد وإتباع لما أمر الله به ، والنص القرآني لا يدعهم في شبهة من الأمر ، ولا يدع إنسانًا يتستر وراء كلمة الإيمان ، بينما هو لا يطيع ولا يرتضي ما شرع الله ، ولا ينفذه في حياته ، ولا يُحكّمه في معاملاته ، فالذين يفرقون في الدين بين الاعتقاد والمعاملات ليسوا بمؤمنين مهما ادعوا الإيمان، وأعلنوا بلسانهم أو حتى بشعائر العبادة الأخرى أنهم مؤمنون "(١).

٩- ويقول أيضًا: " إن هذا الدين يعلن عن طبيعته وعن حقيقته في كل مناسبة ، إنه ليس مجرد عقيدة تستكن في الضمير ، كما أنه ليس مجرد شعائر تؤدى وطقوس، إنما هو الإتباع الكامل لرسول الله ﷺ فيما يبلغه عن ربه ، وفيما يشرعه ويَسُنه وفي قوله تعالى ﴿ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ بعد الأمر بالإيمان بالله ورسوله، لفتةٌ عظيمةٌ وهي : لو كان الأمر في هذا الدين أمر اعتقاد وكفى لكان في قوله ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ الكفاية (٢).

١٠- في ظلال قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ (٣) يقول: " وهنا نرى للإيمان صورة حركية ظاهرة ومشاعر قلبية باطنة، ذلك أن الإيمان هو ما وقر في القلب وصدقه العمل ، فالعمل هو الدلالة الظاهرة للإيمان، التي لا بد من ظهورها للعيان لتشهد بالوجود الفعلي لهذا الإيمان" (٤).

١٢- ويقول أيضًا: " ذلك أن المنهج الإسلامي منهج عقيدة وعمل يصدق العقيدة، فمحك الصدق هو العمل الظاهر ، يراه الله ورسوله والمؤمنون . " (٥).

١٣- في ظلال قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾(٦) يقول: " وهذه قاعدته- أي القرآن

---

(١) المصدر السابق ، ١/ ٣٣٠ .
(٢) المصدر السابق ، ٣/ ١٣٨٠ بتصرف يسير .
(٣) سورة الأنفال ، الآيات ٢-٤ .
(٤) في ظلال القرآن ، ٣/ ١٤٧٧ وما قبلها .
(٥) المصدر السابق ، ٣/ ١٧٠٨ .
(٦) سورة الإسراء ، الآية ٩ .

-الأصيلة في العمل والجزاء،فعلى الإيمان والعمل الصالح يقيم بناءه، فلا إيمان بلا عمل، ولا عمل بلا إيمان، الأول مبتور لم يبلغ تمامه،والثاني مقطوع لا ركيزة له، وبهما معًا تسير الحياة على التي هي أقوم، وبهما معًا تتحقق الهداية بهذا القرآن" (١).

١٤ - في ظلال قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾ (٢) يقول " هذا هو قانون العمل والجزاء ، لا بد من الإيمان لتكون للعمل الصالح قيمته، ولا بد من العمل الصالح لتكون للإيمان ثمرته ، بل لتثبت للإيمان حقيقته " (٣).

" إن الإيمان الصحيح متى استقر في القلب ظهرت آثاره في السلوك ، والإسلام عقيدة متحركة لا تطيق السلبية ، فهي بمجرد تحققها في عالم الشعور تتحرك لتحقق مدلولها في الخارج ، ولتترجم نفسها إلى حركة وإلى عمل في عالم الواقع ... فالمؤمنون تصدق أفعالهم أقوالهم .. والإيمان تكيف في النفس وانطباع في القلب ، وعمل في الواقع ..." (٤).

١٥ - ويقول : " والعمل الصالح هو الثمرة الطبيعية للإيمان، والحركة الذاتية التي تبدأ في ذات اللحظة التي تستقر فيها حقيقة الإيمان في القلب، فالإيمان حقيقة إيجابية متحركة ، ما إن تستقر في الضمير حتى تسعى بذاتها إلى تحقيق ذاتها في الخارج في صورة عمل صالح ، هذا هو الإيمان الإسلامي، لا يمكن أن يظل خامدًا لا يتحرك، كامنًا لا يتبدى في صورة حية خارج ذات المؤمن فإن لم يتحرك هذه الحركة الطبيعية فهو مزيف أو ميت ، شأنه شأن الزهرة لا تمسك أريجها فهو ينبعث منها انبعاثًا طبيعيًا، وإلا فهو غير موجود ! ومن هنا قيمة الإيمان، إنه حركة وعمل وبناء وتعمير يتجه إلى الله، إنه ليس انكماشًا وسلبية، وانزواء في مكنونات الضمير، وليس مجرد النوايا الطيبة التي لا تتمثل في حركة، وهذه طبيعة الإسلام البارزة التي تجعل منه قوة بناء كبرى في صميم الحياة " (٥).

---

(١) في ظلال القرآن ، ٤/ ٢٢١٥ .
(٢) سورة الأنبياء ، الآية ٩٤ .
(٣) في ظلال القرآن ، ٤/ ٢٣٩٧ ، وكذا ٢٤٠٠ .
(٤) المصدر السابق ، ٤/ ٢٥٢٥ بتصرف يسير وينظر أيضًا ، ٤/ ٢٥٢٨ ، ٥/ ٢٧٨٥ ، ٦/ ٣٢٦ ، ٣٩٨٤ .
(٥) المصدر السابق ، ٦/ ٣٩٦٧ .

هذه النقولات وغيرها كثير تدل على أن سيد - رحمه الله- يقرر معتقد أهل السُّنَّة والجماعة في حقيقة الإيمان وعلاقته بالعمل ، ويخالف ما عليه تيار الإرجاء الذي جعل الإيمان قولاً باللسان ورسماً بالخيال تكذبه الأعمال ، فالإيمان الصحيح يقتضي العمل وهذا ما قرره الأئمة المحققون ودلت عليه نصوص الكتاب والسُّنَّة وإجماع السلف .

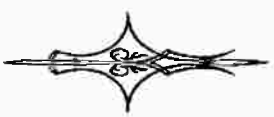

المبحث الثاني

ثمرات الإيمان والتوحيد وآثاره في الحياة

" الإيمان هو أصل الحياة الكبير ، الذي ينبثق منه كل فرع من فروع الخير ، وتتعلق به كل ثمرة من ثماره، وإلا فهو مقطوع من شجرته، صائر إلى ذبول وجفافٍ، وإلا فهي ثمرة شيطانية ليس لها امتداد أو دوام ، وهو المحور الذي تشدّ إليه جميع خيوط الحياة الرفيعة ، وإلا فهي مفلتة لا تمسك بشيء ، ذاهبة بددًا مع الأهواء والنزوات، وهو المنهج الذي يضم شتات الأعمال، ويردها إلى نظام تتناسق معه وتتعاون وتنسلك في طريق واحد وفي حركة واحدة ، لها دافع معلوم ، ولها هدف مرسوم "[1].

بهذه الكلمات التي سطرها سيد – رحمه الله – عن أثر الإيمان – أبدأ هذا المبحث، والذي أعرض فيه كلامه – رحمه الله – عن ثمرات الإيمان والتوحيد وآثاره في حياة البشرية في مختلف جوانبها ، ونظرًا لكثيرة النصوص في هذا الباب فسأحاول اختصار وجمع كلامه على هيئة نقاط ومنها:

١ - الإيمان هو الصلة الكبرى بين العبد وربه سبحانه :

يقول سيد: " وهذه الحقيقة الكبيرة تؤكدها نصوص القرآن دائمًا ، وهي من تفضل الكريم -سبحانه- على عباده المؤمنين ، حيث يجعل صفهم صفه ، وأمرهم أمره ، وشأنهم شأنه ، يضمهم- سبحانه- إليه ، ويأخذهم في كنفه ، ويجعل عدوهم عدوه ، وما يوجه إليهم من مكر موجهًا إليه – سبحانه – وهذا هو التفضل العلوي الكريم ، الذي يرفع مقام المؤمنين وحقيقتهم إلى هذا المستوى السامق ، والذي يوحي بأن حقيقة الإيمان في هذا الوجود هي أكبر وأكرم الحقائق ، والذي يسكب في قلب المؤمن طمأنينة لا حد لها ، وهو يرى الله – جل شأنه – يجعل قضيته هي قضيته ، ومعركته هي معركته ، وعدوه هو عدوه ، ويأخذه في صفه، ويرفعه إلى

(١) في ظلال القرآن ، ٦/ ٣٩٦٦ .

جواره الكريم ، فماذا يكون العبيد وكيدهم وخداعهم وأذاهم الصغير!" (١).

٢ - الإيمان يمنح القلب الطمأنينة والسلام والمشاعر النظيفة والاهتمامات الرفيعة :

يقول سيد : " فالإيمان هو المرشد الذي ينبغي للإنسان أن يتوخاه ويحرص عليه .. فما يتدبر الإنسان نعمة الإيمان ، وما تمنحه للإدراك البشري من تصور ناصع واضح ، وما تمنحه للقلب البشري من طمأنينة وسلام ، وما تثيره في النفس البشرية من اهتمامات رفيعة ومشاعر نظيفة ، وما تحققه في المجتمع الإنساني من نظام سليم قويم دافع إلى تنمية الحياة وترقيتها ، ما يتدبر الإنسان نعمة الإيمان على هذا النحو حتى يجد فيها الرشد الذي لا يرفضه إلا سفيه .." (٢).

" فالقلب المؤمن يدرك قيمة الاهتداء بعد الضلال ، قيمة الرؤية الواضحة بعد الغبش ، قيمة الاستقامة على الدرب بعد الحيرة ، قيمة الطمأنينة للحق بعد الأرجحة ، قيمة التحرر من العبودية للعبيد بالعبودية لله وحده ، قيمة الاهتمامات الرفيعة الكبيرة بعد اللهو بالاهتمامات الصغيرة الحقيرة ، ويدرك أن الله منحه بالإيمان كل هذا الزاد .. ومن ثم يشفق من العود إلى الضلال .. وفي بشاشة الإيمان حلاوة لا يدركها إلا من ذاق جفاف الإلحاد وشقاوته المريرة ، وفي طمأنينة الإيمان حلاوة لا يدركها إلا من ذاق شقوة الشرود والضلال ! " (٣).

"وقيمة الإيمان كذلك الطمأنينة النفسية والثقة بالطريق، وعدم الحيرة، أوالتردد، أوالخوف أواليأس" (٤).

٣ - الإيمان نور يضيء للعبد دروب الحياة :

يقول سيد : "إن الإيمان نور ، نور واحد في طبيعته وحقيقته ،وما من حقيقة أصدق ولا أدق من التعبير عن الإيمان بالنور، إن الإيمان نور يشرق به كيان المؤمن أول ما ينبثق في ضميره ، تشرق به روحه فتشف وتصفو وتشع من حولها نورًا ووضاءة ووضوحاً ، نور يكشف حقائق الأشياء ، وحقائق القيم وحقائق التصورات ،

(١) المصدر السابق ، ١/ ٤٣ .
(٢) في ظلال القرآن ، / ٣٩٢ ، بتصرف يسير .
(٣) المصدر السابق ، ١/ ٣٧٠ - ٣٧١ .
(٤) المصدر السابق ، ٥/ ٣١٦١ .

فيراها المؤمن واضحة بغير غبش، بيِّنة بغير لبس مستقرة في مواضعها بغير أرجحة، فيأخذ منها ما يأخذ ويدع ما منها ما يدع في هوادة وطمأنينة وثقة وقرار لا أرجحة فيه ، نور يكشف الطريق إلى الناموس الكوني فيطابق المؤمن بين حركة الناموس الكوني من حوله ومن خلاله ، ويمضي في طريقه إلى الله هينًا لينًا لا يعتسف ولا يصطدم بالنتوءات ، ولا يخبط هنا وهناك ، فالطريق في فطرته مكشوف معروف ، وهو نور واحد يهدي إلى طريق واحد ، فأما ضلال الكفر فظلمات شتى منوعة "[1].

" والإيمان بالله نور يشرق في القلب ، فيشرق به هذا الكيان البشري المركب من الطينة الغليظة ومن نفحة روح الله ، فإذا ما خلا من إشراق هذه النفحة استحال طينة معتمة طينة من لحم ودم كالبهيمة .. والإيمان بالله نور تشرق به النفس ، فترى الطريق .. ترى الطريق واضحة إلى الله ، لا يشوبها غبش ولا يحجبها ضباب ، غبش الأوهام وضباب الخرافات ، أو غبش الشهوات وضباب الأطماع ، ومتى رأت الطريق سارت على هدى لا تتعثر ولا تضطرب ولا تتردد ولا تحتار.

والإيمان بالله نور تشرق به الحياة ، فإذا الناس كلهم عباد متساوون ، تربط بينهم آصرتهم في الله ، .. الإيمان بالله نور ، نور العدل ، ونور الحرية ، ونور المعرفة ، ونور الأنس بجوار الله ، والاطمئنان إلى عدله ورحمته وحكمته في السراء والضراء ، ذلك الاطمئنان الذي يستتبع الصبر في الضراء والشكر في السراء على نور في إدراك الحكمة من البلاء "[2].

" إن الإيمان نور ، نور في القلب ، ونور في الجوارح ، ونور في الحواس ، نور يكشف حقائق الأشياء والقيم والأحداث وما بينها من ارتباطات ونسب وأبعاد، فالمؤمن ينظر بهذا النور ، نور الله فيرى تلك الحقائق ويتعامل معها ، ولا يخبط في طريقه.

والإيمان بصر ، يرى ، يرى حقيقة صادقة غير مهزوزة ولا مخلخلة ، ويمضي بصاحبه في الطريق على نور وعلى ثقة واطمئنان .

والإيمان ظل ظليل تستروحه النفس ويرتاح له القلب ،ظل من هاجرة الشك

(١) المصدر السابق ، ١/ ٢٩٣٠ .
(٢) في ظلال القرآن ، ٤/ ٢٠٨٥ .

والقلق والحيرة في التيه المظلم بلا دليل ! .

والإيمان حياة ، حياة في القلوب والمشاعر ، حياة في القصد والاتجاه ، كما أنه حركة بانية مثمرة قاصدة ، لا خمود فيها ولا همود ، ولا عبث فيها ولا ضياع "[١].

" والإيمان تفتح ورؤية ، وإدراك واستقامة ، فهو نور بكل مقومات النور .. ويجد الإنسان في قلبه هذا النور ، فتنكشف له حقائق هذا الدين ، ومنهجه في العمل والحركة ، تكشفًا عجيبًا ، يجد الإنسان به التناسق الشامل في طبيعة هذا الدين وحقائقه ، والتكامل الجميل في منهجه وطريقته ، .. يجد الإنسان في قلبه هذا النور فتنكشف له حقائق الوجود ، وحقائق الحياة ، وحقائق الناس وحقائق الأحداث التي تجري في هذا الكون وفي عالم الناس .. يجد الوضوح في كل شأن وفي كل أمر وحدث ، يجد الوضوح في نفسه وفيما حوله ،يجد الوضاءة في خواطره ومشاعره وملامحه ،يجد الراحة في باله وحاله ومآله، يجد الرفق واليسر في أموره .. " [٢].

٤-الإيمان نقطة تحول في حياة البشر :

يقول سيد : " إن الإيمان بالله هو نقطة التحول في حياة البشرية من العبودية لشتى القوى، وشتى الأشياء، وشتى الاعتبارات، إلى عبودية واحدة تتحرر بها النفس من كل عبودية، وترتفع بها إلى مقام المساواة مع سائر النفوس في الصف الواحد ، ثم ترتفع بها فوق كل شيء وكل اعتبار، وهو نقطة التحول كذلك من الفوضى إلى النظام ، ومن التيه إلى القصد، ومن التفكك إلى وحدة الاتجاه ، فهذه البشرية دون إيمان بالله الواحد ، لا تعرف لها قصدًا مستقيمًا ولا غاية مطردة ، ولا تعرف لها نقطة ارتكاز تتجمع حولها في جد ومساواة ، كما يتجمع الوجود كله واضح النسب والارتباطات ، والأهداف والعلاقات " [٣].

٥-الإيمان هو سبب الثبات والاستعلاء والنصر :

يقول سيد : " لا بد من الإيمان ليملك الدعاة إلى الخير الآمرون بالمعروف،الناهون عن المنكر، أن يمضوا في هذا الطريق الشاق ، ويحتملوا تكاليفه وهم يواجهون

(١) المصدر السابق ، ٥/ ٢٩٣٩ .
(٢) المصدر السابق، ٣/ ١٢٠٠- ١٢٠١ بتصرف .
(٣) المصدر السابق ١/ ١٥٩ .

طاغوت الشر في عنفوانه وجبروته ، ويواجهون طاغوت الشهوة في عرامتها وشدتها ، ويواجهون هبوط الأرواح ، وكلل العزائم ، وثقلة المطامع ، وزادهم هو الإيمان ، وعدتهم هي الإيمان ، وسندهم هو الله ، وكل زاد سوى الإيمان ينفذ ، وكل عدة سوى عدة الإيمان تُفَلّ ، وكل سند غير سند الله ينهار ! " [١].

ويظهر أثر الإيمان في الثبات والاستعلاء في نماذج كثيرة ذكرها القران الكريم ،منها: قصة نوح عليه السلام عندما قال لقومه: ﴿ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [٢]. حيث يظهر التحدي الصريح المثير الذي لا يقوله القائل إلا وهو مالئٌ يديه من قوته ، واثق كل الوثوق من عدته، حتى ليُغري خصومه بنفسه ، ويحرضهم بمثيرات القول على أن يهاجموه! فماذا كان وراء نوح -عليه السلام- من القوة والعدة ؟ وماذا كان معه من قوى الأرض جميعًا ؟، كان معهً الإيمان ، القوة التي تتصاغر أمامها القوى ، وتتضاءل أمامها الكثرة ، ويعجز أمامها التدبير ، وكان وراءه الله الذي لا يدع أولياءه لأولياء الشيطان ! .

إنه الإيمان بالله وحده ذلك الذي يصل صاحبه بمصدر القوة الكبرى المسيطرة على هذا الكون بما فيه ومن فيه ، فليس هذا التحدي غرورًا ، وليس كذلك تهورا، وليس انتحارًا ، إنما هو تحدي القوة الحقيقية الكبرى للقوة الهزيلة الفانية التي تتضاءل وتتصاغر أمام أصحاب الإيمان .

وأصحاب الدعوة إلى الله لهم أسوة حسُنَّة في رسل الله ، وإنه لينبغي لهم أن تمتلئ قلوبهم بالثقة حتى تفيض ، وإن لهم أن يتوكلوا على الله حده في وجه الطاغوت أيًا كان ! " [٣].

ومن النماذج التي يظهر فيها الاستعلاء بالإيمان : قصة سحرة فرعون وإجابتهم على تهديده لهم بالقتل والصلب والقطع ، يقول سيد - رحمه الله - معلقًا على ذلك " ولكن النفس البشرية حين تستعلن فيها حقيقة الإيمان ، تستعلي على قوة الأرض، وتستهين ببأس الطغاة ، وتنتصر فيها العقيدة على الحياة ، وتحتقر الفناء الزائل إلى

(١) في ظلال القرآن ، ١/ ٤٤٨ .
(٢) سورة يونس ، الآية ٧١ .
(٣) في ظلال القرآن ، ٣/ ١٨١١ .

جوار الخلود المقيم ، إنها لا تقف لتسأل : ماذا ستأخذ وماذا ستدع ؟ ماذا ستقبض - ماذا ستدفع ؟ ، ماذا ستخسر وماذا ستكسب ؟ وماذا ستلقى في الطريق من صعاب وأشواك وتضحيات ؟ لأن الأفق المشرق الوضيء أمامها هناك ، فهي لا تنظر إلى شيء في الطريق . إنه الإيمان الذي لا يفزع ولا يتزعزع ، كما أنه لا يخضع أو يخنع ، الإيمان الذي يطمئن إلى النهاية فيرضاها ، ويستيقن من الرجعة إلى ربه فيطمئن إلى جواره، ويقف الطغيان عاجزًا أمام الإيمان" (١).

كما يظهر أثر الإيمان الحقيقي في النصر " فمتى استقرت حقيقة الإيمان في نفوس المؤمنين ، وتمثلت في واقع حياتهم منهجًا للحياة ، ونظامًا للحكم ، وتجردًا لله في كل خاطرة وحركة ، وعبادة لله في الصغيرة والكبيرة ، فلن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلًا،وهذه حقيقة لا يحفظ التاريخ الإسلامي كله واقعة واحدة تخالفها.

وأنا أقرر في ثقة بوعد الله لا يخالجها شك ، أن الهزيمة لا تلحق بالمؤمنين ، ولم تلحق بهم في تاريخهم كله ، إلا وهناك ثغرة في حقيقة الإيمان، إما في الشعور، وإما في العمل ،.. وبقدر هذه الثغرة تكون الهزيمة الوقتية ، ثم يعود النصر للمؤمنين حين يعودون! .. وقد يكون الابتلاء لتُستكمل حقيقة الإيمان.. وليس بيننا وبين النصر في أي زمان وفي أي مكان إلا أن نستكمل حقيقة الإيمان ، ونستكمل مقتضيات هذه الحقيقة في حياتنا وواقعنا كذلك .. غير أنه يجب أن نفرق دائمًا بين حقيقة الإيمان ، ومظهر الإيمان ، إن حقيقة الإيمان قوة حقيقية ثابتة ثبوت النواميس الكونية ، ذات أثر في النفس وفيما يصدر عنها من الحركة والعمل ، وهي حقيقة ضخمة هائلة كفيلة حين تواجه حقيقة الكفر المنعزلة المبتوتة المحددة أن تقهرها ، ولكن حين يتحول الإيمان إلى مظهر ، فإن حقيقة الكفر تغلبه .. لأن "حقيقة" أي شيء أقوى من " مظهر " أي شيء " (٢).

٦-الإيمان يفتح العقل ويذهب بلادة الألفة والغفلة :

يقول سيد : " فالقلب الذي ينوره الإيمان يستقبل مشاهد الكون بحس متجدد، وتفتح وحساسية ، يقدر الجمل والتناسق والكمال ، فالإيمان رؤية جديدة للكون ،

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٥١ ، وينظر أيضًا ، ١/ ٢٦٦ ، ٤/ ٢٣٤٣ ، ٥/ ٢٥٩٧ ، ٦/ ٣٠٣٦ ، ٦/ ٣٨٧٤ .
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٧٨٤ .

وإدراك جديد للجمال" [١].

٧- الإيمان سبب لوحدة الكينونة الإنسانية وتناسقها مع الكون :

إن الإيمان والتوحيد الحق له أثر شامل في كيان الإنسان ، يقول سيد : "يرد الكينونة الإنسانية إلى مصدر واحد ، تتلقى منه التصورات والمفاهيم والقيم والموازين والشرائع والقوانين ، وتجد عنده إجابة عن كل سؤال يجيش فيها ، وهي تواجه الكون والحياة والإنسان ، بكل ما يثيره كل منها من علامات الاستفهام ، عندئذ تتجمع هذه الكينونة شعورًا وسلوكًا ، وتصورًا واستجابة في شأن العقيدة والمنهج ، وشأن الاستمداد والتلقي ، وشأن السعي والحركة ، وشأن الدنيا والآخرة فلا تتفرق مزقًا ، ولا تتجه إلى شتى السبل والآفاق ، ولا تسلك شتى الطرق على غير اتفاق، وعندما تتجمع على هذا النحو تصبح في خير حالاتها " [٢].

" وعن طريق الإيمان ينشأ إدراك حقيقة هذا الوجود ،... وبه يستطيع الإنسان أن يتعامل مع الكون ، وهو يعرف طبيعته كما يعرف قوانينه التي تحكمه ، ومن ثم ينسق حركته هو مع حركة هذا الوجود الكبير، ولا ينحرف عن النواميس الكلية ، فيسعد بهذا التناسق ، ويمضي مع الوجود كله إلى بارئ الوجود في طاعة واستسلام وإسلام" [٣].

٨- تصحيح موازين القيم والعلاقات والوجود :

يقول سيد : " إن مقاييس هذه الأرض وموازينها لا تمثل الحقيقة التي ينبغي أن تستقر في ضمير صاحب العقيدة ، .. ومن ثم يبقى صاحب العقيدة في أفق الحقيقة الكبيرة مستعليًا على واقع الأرض الصغير مهما تضخم هذا الواقع وامتد واستطال، يتعامل مع القيم الإيمانية الثابتة التي لا تهتز لخلل يقع في موازين الحياة الدنيا الصغيرة الخادعة ، وتلك وظيفة الإيمان في حياة أصحاب العقائد المختارين لتعديل قيم الحياة وموازينها ، لا للتعامل بها والخضوع لمقتضياتها " [٤].

(١) المصدر السابق ١/ ١٥٢ بتصرف .
(٢) المصدر السابق ٤/ ١٩٣٨ بتصرف يسير .
(٣) المصدر السابق ٦/ ٣١٦١ ، وينظر أيضًا الصفحات ٣٠٣٦ ، ٣٣٤٦ ، ٣٤٩٢ ، ومقومات التصور ص ٢٩٢ ، وخصائص التصور ص ٩٥ وما بعدها .
(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٩٢ بتصرف يسير .

فالإيمان ضروري في الحياة " ليضع الميزان الصحيح للقيم ، والتعريف الصحيح للمعروف والمنكر، فاصطلاح الناس لا يكفي ، بل قد يعم بسببه الفساد وتضطرب الموازين ... والإيمان هو الذي يقيم التصور الصحيح للوجود وعلاقته بخالقه ، وللإنسان وغاية وجوده ومركزه الحقيقي في هذا الكون ، ومن هذا التصور العام تنبثق القواعد الأخلاقية في الحياة " (١).

٦- الإيمان هو الذي يجعل للعمل وزنًا عند الله :

يقول سيد : " فكل ما يعمل في الدنيا من الأعمال الصالحة إذا لم تقم على الإيمان فإنها هباء ، فالإيمان هو الذي يجعل العمل الصالح منهجًا مرسومًا ، وأصلا قاصدًا، لا خبط عشواء ، ولا نزوة طارئة ، ولا حركة مبتورة.. فلا قيمة لعمل مفرد لا يتصل بمنهج ، ولا فائدة لحركة مفردة ليست حلقة من سلسلة ذات هدف معلوم، لأن الإيمان يصل الإنسان بربه فيجعل لعمله قيمة ووزنًا ، ويجعل له مكانه في حساب هذا الكون وبنائه ، ولهذا تعدم أعمال المشركين قيمتها " (٢).

" فالإيمان هو المنهج الذي يضم شتات الأعمال، ويردها إلى نظام تتناسق معه وتتعاون وتنسلك في طريق واحد ، وفي حركة واحدة ، لها دافع معلوم ، ولها هدف مرسوم ، ومن ثم يهدر القرآن قيمة كل عمل لا يرجع إلى هذا الأصل ، ولا يشد إلى هذا المحور ، ولا ينبع من هذا المنهج ، والنظرية الإسلامية صريحة في هذا كل الصراحة ، فهي تهدر قيمة العمل ما لم يستند إلى الإيمان (٣).

وفي ظلال قوله تعالى ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾ (٤). يقول سيد: " وهو نص صريح في اشتراط الإيمان لقبول العمل وأنه لا قيمة عند الله لعمل لا يصدر عن الإيمان ، ولا يصاحبه الإيمان ، وذلك طبيعي ومنطقي لأن الإيمان بالله هو الذي

---

(١) المصدر السابق ١/ ٤٤٧ بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق ٥/ ٢٥٥٩ .
(٣) المصدر السابق ٦/ ٣٩٦٦ وما بعدها بتصرف .
(٤) سورة النساء ، الآية ١٢٤ .

يجعل العمل الصالح يصدر عن تصور معين وقصد معلوم كما يجعله حركة طبيعية مطردة، لا استجابة لهوى شخصي، ولا فلتة عابرة لا تقوم على قاعدة .

وهذه الألفاظ الصريحة تخالف ما ذهب إليه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده – رحمه الله – في تفسيره لجزء " عم " عند قوله تعالى ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ ﴾ إذ رأى أن النص لعمومه هذا يشمل المسلم وغير المسلم ، بينما النصوص الصريحة الأخرى تنفي هذا تمامًا" [١].

١٠ -الإيمان يمنح الإنسان سعة التصور ومعنى الحياة ويقضي على الحيرة والقلق والشقاء:

يقول سيد : " إن هناك حقيقة ضخمة يغفل عنها الكثيرون، وقد يغفل عنها بعض المؤمنين وهي أن الإيمان هو كبرى المنن التي ينعم الله بها على عبدٍ من عباده في الأرض، إنه أكبر من منة الوجود الذي يمنحه الله ابتداءً لهذا العبد ، وما يتعلق به من الآلاء .

فأول ما يصنعه الإيمان في الكائن البشري، حين تستقر حقيقته في قلبه، هو سعة تصوره لهذا الوجود ، ولارتباطاته هو به ، ولدوره هو فيه ،وصحة تصوره للقيم والأشياء والأشخاص والأحداث من حوله ، وطمأنينته في رحلته على هذا الكوكب الأرضي ، حتى يلقى الله، وأنسه بكل ما في الوجود حوله، وأنسه بالله خالقه وخالق هذا الوجود وشعوره بقيمته وكرامته، وإحساسه بأنه يملك أن يقوم بدور مرموق يُرضي عنه الله ، ويحقق الخير لهذا الوجود كله بكل ما فيه وكل من فيه .

فمن سعة تصوره أن يخرج من نطاق ذاته المحدودة في الزمان والمكان .. إلى محيط الوجود كله فيشعر بكرامته ورفعته في الوجود ،.. ويشعر أنه فرع من شجرة طيبة باسقة عميقة الجذور ، وهذا الشعور يكفي ليجد للحياة طعمًا آخر " [٢] .

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٥٩ .
(٢) المصدر السابق ، ٦/ ٣٣٥١ .

المبحث الثالث

زيادة الإيمان ونقصانه وعلاقته بالإسلام

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : زيادة الإيمان ونقصانه .

المطلب الثاني : العلاقة بين الإيمان والإسلام والإحسان .

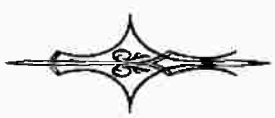

المطلب الأول

زيادة الإيمان ونقصانه

قضية زيادة الإيمان ونقصانه مرتبطة بقضية علاقة العمل بالإيمان ، فأهل السُّنَّة والجماعة الذين يرون دخول الأعمال في مسمى الإيمان يرون بالتالي أن الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي ، ويستدلون على هذا بأدلة كثيرة من الكتاب والسُّنَّة وآثار الصحابة والتابعين ، وكذا الاعتبار والنظر والواقع [١] ، فإن العاصي لا يعصي إلا بعد ضعف وازع الدين في قلبه ، والمتقي لله يتقيه ويؤمن به لقوة الوازع في قلبه، وهذا معنى زيادة الإيمان ونقصانه .

بينما يرى المخالفون لأهل السُّنَّة أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، بناءً على أن الإيمان عندهم هو التصديق ، وأن الأعمال خارجة عن مسمى الإيمان ، والتصديق شيء واحد لا يمكن أن يدخله زيادة ، وأما إذا نقص فيكون شكًا وكفرًا لأنه شيء واحد إذا ذهب بعضه ذهب كله .

وهؤلاء عندهم شبهات عقلية عارضوا بها النصوص الشرعية ،ناقشها ورد عليها كثير من علماء أهل السُّنَّة قديمًا وحديثًا [٢] .

وقبل ذكر موقف سيد قطب – رحمه الله – من زيادة الإيمان ونقصانه يحسن التنبيه إلى أن كل دليل على زيادة الإيمان فهو يدل على نقصانه باللزوم ، وذلك لأن الزيادة تستلزم النقص ، ولأن ما جاز عليه الزيادة جاز عليه النقص، ولأن الزيادة لا تكون إلا عن نقص، وهذا ما عليه أئمة العلم .

---

(١) ينظر في ذلك : الشريعة للآجري ص ١١١ وما بعدها ، والسُّنَّة لعبد الله بن الإمام أحمد ١/ ٣١٤ ، والإيمان لابي عبيد القاسم بن سلام ص ٧٢ ، والإيمان لابن أبي شيبه ص ٣٥ ، وكتاب الإيمان من صحيح البخاري ، ١/ ١١ والإيمان لابن تيمية ص١٤وما بعدها . وشرح أصول الاعتقاد للألكائي ٥/ ٩٥٥ وما بعده وفتح الباري ١/ ٦٧ وما بعده .

(٢) ينظر في الرد عليهم : كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية ، وشرح صحيح مسلم للنووي ١/ ١٤٨-١٤٩ ، والمنهاج في شعب الإيمان للحسن بن الحسين الحليمي ١/ ٥٥ ، ٦٢ ، والتمهيد لابن عبد البر ٩/ ٢٤٤ وما بعدها .

قال الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله – [١] : " إن كان قبل زيادته – أي الإيمان – تامًا ، فكما يزيد كذا ينقص " [٢] .

وأورد البخاري [٣] –رحمه الله – في صحيحه بعض الآيات التي تدل على زيادة الإيمان في باب زيادة الإيمان ونقصانه مستدلًا بها على الزيادة والنقصان معًا .

وقال الحافظ بن حجر : " ثم شرع المصنف– أي البخاري– يستدل لذلك بآيات من القرآن مصرحة بالزيادة ، وبثبوتها يثبت المقابل ، فإن كل قابل للزيادة قابل للنقصان ضرورة " [٤] .

موقف سيد قطب – رحمه الله – من زيادة الإيمان ونقصانه :

يُتَهم سيد قطب بأنه يرى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ويُعتَمد في ذلك على كلامه في موضعين :

الموضع الأول : قوله : " إن الإيمان وحدة لا تتجزأ " [٥]. حيث يقول الشيخ الدويّش : " الموضع السابع والعشرون : قال – أي سيد قطب – ٢/ ٧٩٨ على آية النساء " إن الذين يكفرون بالله ورسله .. " الآيات ، إن الإيمان وحدة لا تتجزأ . أقول – أي الدويش –: هذا خلاف قول أهل السُّنَّة والجماعة لأن عندهم أن الإيمان ذو شعب كما في الحديث المتفق عليه " الإيمان بضع وسبعون شعبة" [٦] ، والناس متفاضلون فيه ، وأما من يقول : إن الإيمان شيء واحد فهم أهل البدع .. ثم ذكر

---

(١) هو : الأمام أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الذهلي الشيباني ، أبو عبد الله . الإمام حقًا وشيخ الإسلام صدقًا ، قال قتيبة أحمد إمامنا ومن لم يرضى فهو مبتدع ، ولد في بغداد سُنَّة ١٦٤ هـ ، وطلب العلم على أكثر من ٢٨٠ شيخا، ثبت في فتنة خلق القرآن وحفظ الله به السُّنَّة ، توفي سُنَّة ٢٤١ هـ . انظر : سير الأعلام ١١/ ١٧٧ ، وحلية الأولياء لأبي نعيم ، دار الكتب العلمية – بيروت ط١ عام ١٤٨ هـ ، ٩/ ١٧٣

(٢) رواه الخلال في السُّنَّة ٢/ ٦٨٨ .

(٣) هو : محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي مولاهم البخاري ، أبو عبد الله ، حبر الإسلام الحافظ الكبير ، ولد في بخار عام ١٩٤ هـ ،حفظ تصانيف بن المبارك وهو صبي ، نشأ يتيمًا ، أكثر من الرحلة وطلب العلم وسمع من أكثر من ألف شيخ ، قال عن نفسه :أحفظ مائة ألف صحيح حديث ومأتي ألف حديث ضعيف . توفي سُنَّة ٢٥٦هـ انظر : تذكرة الحفاظ للذهبي ٢/ ١٥٥ ، وتهذيب التهذيب لابن حجر ٩/ ٤٧ .

(٤) فتح الباري ١/ ٦٢ .

(٥) في ظلال القرآن ٢/ ٧٩٨ .

(٦) رواه البخاري في كتاب الإيمان ، باب أمور الإيمان ١/ ١٣ برقم ٩ ،ومسلم في الإيمان باب عدد شعب الإيمان ١/ ٦٥-٦٦ برقم ٣٥ .

نقولات عن بعض أهل العلم في ذلك "[١] .

وعند رجوعي إلى الظلال، وجدت الشيخ- رحمه الله- اجتزأ من كلام سيد قوله: " إن الإيمان وحدة لا تتجزأ " واستدل بها على أن سيد يقول بأن الإيمان شيء واحد لا يزيد ولا ينقص ، ورحم الله الشيخ الدويّش لو أنه ذكر كلام سيد في سياقه كاملاً لتبين له وللقارئ أن مقصد سيد من اللفظ غير ما ذكره، فسيد تحدث في ظلال قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ ﴾[٢] بقوله : " كان اليهود يدّعون الإيمان بأنبيائهم وينكرون رسالة عيسى ورسالة محمد – عليهما السلام – كما كان النصارى يقفون بإيمانهم عند عيسى – عليه السلام – فضلاً عن تأليهه، وينكرون رسالة محمد ﷺ ، وكان القرآن ينكر على هؤلاء وهؤلاء ، ويقرر التصور الإسلامي الشامل الكامل عن الإيمان بالله ورسله ، بدون تفريق بين الله ورسله ، وبدون تفريق كذلك بين رسله جميعًا، فالتوحيد المطلق لله يقتضي توحيد دينه الذي أرسل به الرسل للبشر ، وتوحيد رسله الذين حملوا هذه الأمانة للناس ، وكل كفر بوحدة الرسل أو وحدة الرسالة هو كفر بوحدانية الله في الحقيقة ، .. لذلك عبر السياق هنا عمن يريدون التفرقة بين الله ورسله ، – بأن يؤمنوا بالله ويكفروا بالرسل – وعمن يردون التفرقة بين الرسل – بأن يؤمنوا ببعضهم ويكفروا ببعضهم – عبر عن هؤلاء وهؤلاء بأنهم – الذين يكفرون بالله ورسله – وعد التفرقة بين الله ورسله ، وتفرقتهم بين بعض رسله وبعض كفرًا بالله وبرسله ، إن الإيمان وحدة لا تتجزأ ، الإيمان بالله إيمان بوحدانيته- سبحانه- ووحدانيته تقتضي وحدة الدين الذي ارتضاه للناس .. وتقتضي وحدة الرسل الذين جاءوا بهذا الدين من عنده – لا من عند أنفسهم ولا في معزل عن إرادته ووحيه – وحدة الموقف تجاههم جميعًا ، ولا سبيل إلى تفكيك هذه الوحدة

(١) المورد العذب الزلال في التنبيه على أخطاء الظلال ، للشيخ / عبد الله بن محمد الدويش ، دار العليان ، بريده، ط١ ، عام ١٤١١هـ ص٤٦ .

(٢) سورة النساء ، الآيات ١٥٠- ١٥٢.

إلا بالكفر المطلق ، وإن حسب أهله أنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض .. أما المسلمون فهم الذين يشتمل تصورهم الاعتقادي على الإيمان بالله ورسله جميعًا بلا تفرقة ، فكل الرسل عندهم موضع اعتقاد واحترام ، وكل الديانات السماوية عندهم حق – ما لم يقع فيها التحريف فلا تكون عندئذٍ من دين الله "[1] .

ومن السياق يتبين أن سيد قطب – رحمه الله – لم يكن يقصد ما أشار إليه الشيخ الدويش من أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص وإنما السياق يتحدث عن الوحدة والترابط بين الإيمان بالله والإيمان برسله دون تفريق بين الله ورسله أو بين الرسل بعضهم ببعض ، فالإيمان بهذا المفهوم وحدة لا تتجزأ- كما قال سيد – وهو أمر حق لا يجادل فيه أحد ،وحتى العبارة نفسها بدون السياق لا تفيد مانسب إلى سيد .

الموضع الثاني: " قول سيد– رحمه الله– في ظلال قوله تعالى:﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾[2] : والقلب المؤمن يجد في آيات هذا القرآن ما يزيده إيمانًا ، وما ينتهي به إلى الاطمئنان ، إن هذا القرآن يتعامل مع القلب البشري بلا وساطة ، ولا يحول بينهم وبينه شيء إلا الكفر الذي يحجبه عن القلب ويحجب القلب عنه ، فإذا رفع هذا الحجاب بالإيمان وجد القلب حلاوة هذا القرآن ، ووجد في إيقاعاته المتكررة زيادة في الإيمان تبلغ إلى الاطمئنان " .

يقول في الهامش معلقًا : " هنا تعرض قضية " الإيمان يزيد وينقص " وهي قضية من قضايا الفرق ، وقضايا علم الكلام في فترة الترف العقلي والفراغ من الاهتمامات العملية الجادة ، فلا ندخل نحن الآن فيها !!![3] .

حيث أورد بعضهم كلام سيد الذي ذكره في الهامش ليستدل به على أن سيد قطب ينكر زيادة الإيمان ونقصانه[4]. **فهل كلام سيد قطب يدل على ذلك ؟ .**

الجواب : إن المنصف الذي يقرأ النص السابق يجد :

أولا : أن قول سيد بأن قضية الحديث عن زيادة الإيمان ونقصانه والاختلاف

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٧٩٨ .
(٢) سورة الأنفال ، الآية ٢ .
(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٧٥ .
(٤) موقع سحاب على شبكة الانترنت .

الذي حصل فيها إنما هو نتيجة للترف العقلي والجدل الكلامي الفارغ ، هو حق ، فالأصل أن لا يحصل خلاف في هذه القضية طالما نصوص الشرع تصرح بوضوح وجلاء بأن الإيمان يزيد وينقص، وطالما وفهم الصحابة – رضوان الله عليهم– لتلك النصوص وعباراتهم الصريحة تدل على هذه الحقيقة ، فإن الاختلاف فيها إنما وقع بسبب المهاترات الكلامية بين الفرق التي انصرفت عن النصوص الشرعية وخاضت في قضايا مُسلَّمة، وبالتالي فعدم الدخول فيها الآن هو الأصوب والأسلم، وهذا ما أراده سيد من كلامه في الهامش بدليل أن سياق النص نفسه يدل على أن سيد يرى بأن الإيمان يزيد وينقص فهو يصرح في بداية النص " بأن المؤمن يجد في آيات هذا القرآن ما يزيده إيمانًا وما ينهي به إلى الاطمئنان " ويؤكد ذلك بقوله ".. ووجد في إيقاعاته المتكررة زيادة في الإيمان تبلغ إلى الاطمئنان " ويضيف بعد ذلك قوله " وكما أن إيقاعات القرآن على القلب المؤمن تزيده إيمانًا ، فإن القلب المؤمن هو الذي يدرك هذه الإيقاعات التي تزيده إيمانًا ، لذلك يتكرر في القرآن تقرير هذه الحقيقة في أمثال قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1]، ومن ذلك قول أحد الصحابة – رضوان الله عليهم – كنا نؤتى الإيمان قبل أن نؤتى القرآن، ثم ذكر تذوق الصحابة للقرآن وتفاعلهم معه وضرورة قيام العصبة المؤمنة التي تتحرك بهذا القرآن فقال " وهذه العصبة المؤمنة التي تتحرك بهذا القرآن لإعادة إنشاء هذا الدين في واقع الناس هي التي تتذوق هذا القرآن ، وتجد في تلاوته ما يزيد قلوبها إيمانًا لأنها ابتداء مؤمنة وليس الإيمان عندها بالتمني ، لكن ما وقر في القلب وصدقه العمل "[2] .

ثانيًا : أن سيد –رحمه الله– بالإضافة إلى تصريحه في النص السابق بزيادة الإيمان قد صرح في مواضع كثيرة بأن الإيمان يزيد – وبالتالي ما دام قابلًا للزيادة فهو قابل للنقصان أيضًا– ومن ذلك :

١– في ظلال قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾[3] ، يقول : " فأما الذين آمنوا فقد أضيفت إلى دلائل الإيمان عندهم دلالة

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٢٤ .
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٧٥ – ١٤٧٦ بتصرف يسير .
(٣) سورة التوبة ، الآية ١٢٤ .

فزادتهم إيمانًا ، وقد خفقت قلوبهم بذكر ربهم خفقة فزادتهم إيمانًا ، وقد استشعروا عناية ربهم بهم في إنزال آياته عليهم فزادتهم إيمانًا ، وأما الذين في قلوبهم مرض ورجس من النفاق فزادتهم رجسًا إلى رجسهم.. وهو نبأ من الله صادق "[1] .

٢- في ظلال قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾[2] ، يقول: "وهكذا تتضافر مثل هذه الصور الرفيعة على إعلان ميلاد تلك الحقيقة الكبيرة في تلك النفوس الكبيرة التي لا تعرف إلا الله وكيلًا ، وترضى به وحده وتكتفي ، وتزداد إيمانًا به في ساعة الشدة "[3] .

٣- في ظلال قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾[4] يقول : " ولما كان الله يعلم من قلوب المؤمنين يومئذ أن ما جاش فيها جاش عن الإيمان والحمية الإيمانية لا لأنفسهم ولا لجاهلية فيهم ، فقد تفضل عليهم بهذه السكينة ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم "[5] .

٤- **ويقول:** " وما يبقى قلب على صفاء الإيمان ونقاوته وهو يقدم على كبائر الذنوب والمعاصي ولا يتجنبها، وما يصلح قلب للقيادة وقد فارقه صفاء الإيمان وطمسته المعصية وذهبت بنوره "[6] .

ثالثًا : أن سيد – رحمه الله – يقرر تفاوت درجات ومقامات الإيمان عند البشر ومن ذلك :

١ – عند تعليقه على قصة العسرة يقول : " ولعل هذا الاستعراض أن يصور لنا اليوم كيف كانت " العسرة " ، كما ينقل لنا لمحة من الجو الذي عاشه المجتمع المسلم في تلك الفترة ، يتجلى فيها تفاوت المقامات الإيمانية ، من اليقين الجاد عند طائفة، إلى الزلزلة والأرجحة تحت مطارق العسرة عند طائفة ، إلى القعود والتخلف –

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٤٢ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٧٣ .
(٣) في ظلال القرآن ١/ ٢٥٠.
(٤) سورة الفتح ، الآية ٤ .
(٥) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣١٧ .
(٦) المصدر السابق ٦/ ٣١٦٤ .

بغير ريبة – عند طائفة ، إلى النفاق الناعم عند طائفة ، إلى النفاق الفاجر عند طائفة، إلى النفاق المتآمر عند طائفة .. " [١] .

٢ – في ظلال قوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[٢]. يشير إلى تفاوت مقامات الإيمان فيقول: " وإيمان الرسول بما أنزل إليه من ربه هو إيمان التلقي المباشر، تلقي قلبه النقي للوحي العلي.. وهي درجة من الإيمان لا مجال لوصفها ، فلا يصفها إلا من ذاقها ، ولا يدركها من الوصف – على حقيقتها – إلا من ذاقها كذلك ، فهذا الإيمان إيمان الرسول ﷺ هو الذي يكرم الله عباده المؤمنين فيجمعهم في الوصف مع الرسول الكريم على فارق ما بين مذاقه في كيان الرسول ﷺ بطبيعة الحال ، وكيان أيٍّ سواه ممن لم يتلقَ الحقيقة المباشرة من مولاه " [٣].

والخلاصة: أن سيد قطب يرى أن الإيمان يزيد و ينقص ، ونسبة القول بعدم زيادة الإيمان ونقصانه إليه غير صحيحة لما سبق بيانه [٤] والله أعلم .

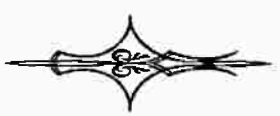

(١) المصدر السابق ٣/ ١٧٢٧ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٨٥.
(٣) في ظلال القرآن ١/ ٣٤٠ .
(٤) ينظر في ذلك أيضًا : في ظلال القرآن في الميزان للدكتور صلاح الخالدي ص ٧٤- ٧٦ .

المطلب الثاني

مراتب الدين والعلاقة بينهما

الدين الإسلامي يتضمن ثلاث مراتب هي: مرتبة الإسلام و الإيمان و الإحسان، وللعلماء في مسألة العلاقة بين هذه المراتب، وخاصة العلاقة بين الإسلام والإيمان أقوال هي :

١- **القول الأول :** أن الإسلام هو الكلمة - أي الشهادتين - والنطق بها ، أما الإيمان فلا بد فيه من العمل مضافًا إلى النطق [١].

٢- **القول الثاني:** أن الإسلام هو الأعمال الظاهرة كالصلاة والزكاة ونحوها ، أما الإيمان فهو المذكور في حديث جبريل المشهور من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره [٢].

٣- **القول الثالث :** أنهما مترادفان ، ولا فرق بينهما [٣].

٤- **القول الرابع :** أنهما إذا اجتمعا افترقا بحيث يطلق الإسلام على الأعمال الظاهرة ويطلق الإيمان على الأعمال الباطنة ، كما في حديث جبريل ويكون الإيمان أعلى مرتبة من الإسلام مع تضمنه له ، فهما غير مترادفين في حالة افتراقهما ، وإذا افترقا اجتمعا ، بحيث إذا أفرد اسم الإيمان فإنه يتضمن الإسلام ، وإذا أفرد اسم الإسلام فإنه يتضمن الإيمان [٤].

وهذا هو الذي عليه الجمهور،وهو الراجح للأدلة الصريحة من الكتاب والسُّنَّة.

---

(١) ينظر : السُّنَّة لأبي بكر الخلال ص ٦٠٢، ٦٠٧ ، وشرح مسلم للنووي ١/ ١٢٩، ومجموع الفتاوى لابن تيمية ٧/ ٢٥٨ .

(٢) ينظر : شرح السُّنَّة للبغوي ١/ ١٠ ، وشرح مسلم للنووي ١/ ١٣٠ ،والإيمان لابن تيمية ص٤٨١، وجامع العلوم والحكم لابن رجب تحقيق الارناؤوط ، مؤسسة الرسالة ،بيروت ،ط٧ ،عام ٢٠٠٢م ،ص ٩٨ و١٠٢ وشرح العقيدة الطحاوية ص٤٨٨ .

(٣) ينظر : صحيح البخاري كتاب الإيمان ١/ ١٢ ، ٢٩ ، وتعظيم قدر الصلاة لمجد بن نصر المروزي ، مكتبة الدار - المدينة - ط١ ، عام١٤٠٦هـ ، ٢/ ٥٠٦ .، وشرح العقيدة الطحاوية ص٤٨٨ .

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ، ص٤٩٠ ، وجامع العلوم والحكم لابن رجب ص١٠٥ وما بعدها.

أما الإحسان فالجميع متفقون على أنه أعلى مراتب الدين ، وهو يتضمن مرتبة الإسلام والإيمان جميعًا .

أما سيد - رحمه الله - فإنه يرى :

١ - أن لفظ الدين يشمل المراتب الثلاث مجتمعة ، فلا يتحقق المدلول الشرعي للدين إلا بالإيمان الباطن والاستسلام الظاهر والإخلاص لله .

يقول - رحمه الله - : " الدين ليس كلمات تقال باللسان، إنما الدين منهج حياة ، منهج يشمل العقيدة المستسرة في الضمير، والعبادة المتمثلة بالشعائر، والعبادة التي تتمثل في إقامة نظام الحياة كلها على أساس هذا المنهج "[١].

٢- أن الإسلام والإيمان إذا أطلق أحدهما شمل مراتب الدين كلها باطنةً وظاهرةً ، فالإسلام إذا أطلق شمل الاعتقاد والعمل الظاهر، " فالإسلام عقيدة تنبثق منها شريعة، يقوم على هذه الشريعة نظام وهذه الثلاثة مجتمعة مترابطة متفاعلة هي الإسلام "[٢].

وكذلك لفظ الإيمان إذا أطلق شمل قضايا العقيدة والعمل ، ومما يدل على ذلك قوله تعالى :﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ ﴾[٣].

يقول سيد معقبًا على هذه الآيات: " تلك هي الصفات التي حدد الله بها - في هذا المقام - الإيمان وهي تشتمل الاعتقاد في وحدانية الله ، والاستجابة الوجدانية لذكره ، والتأثر القلبي بآياته ، والتوكل عليه وحده ، وإقامة الصلاة له ، والإنفاق من بعض رزقه "[٤].

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٩٣٩ . وينظر في مفهوم الدين أيضًا : في ظلال القرآن ٣/ ١٢١٦ ، ١٢٤٢ ، ٤/ ٢٠٢٠ ، ٦/ ٣٩٨٥ ، ومقومات التصور الإسلامي ص٣٣ ، ١٣٢ ، ومعالم في الطريق ص ٧١ ، والمستقبل لهذا الدين ص ١٣ ، والعدالة الاجتماعية ص٧٨، ١٨٢ .

(٢) ينظر في ظلال القرآن ١/ ٣٥٧ ، ٥/ ٢٨٢٢ .

(٣) سورة الأنفال ، الآية ٢-٤ .

(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٧٧ .

٣- أن الإيمان مرتبة أعلى من مرتبة الإسلام ، فهو وإن كان يطلق على العقيدة القلبية إلا أنه لا يتحقق مدلوله إلا بالأعمال الظاهرة في الواقع ، وأن الإنسان قد يحكم له بالإسلام إذا نطق به ، ولكن حقيقة الإيمان مرتبة فوق ذلك، ويشير إلى هذا قوله تعالى عن الأعراب: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[1]. فحقيقة الإيمان لم تكن قد استقرت بعد في تلك القلوب ولم تتذوق حلاوته عندما منَّت بإسلامها "[2].

وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾[3].

يقول : " أي اخلص ذاته كلها لله ووجه مشاعره كلها إليه ،وخلص لله ...،وهنا تبرز سمة الإسلام الأولى : إسلام الوجه - والوجه رمز على الكل -ولفظ اسلم يعني الاستسلام المعنوي والتسليم العملي ... ومع هذا لابد من الدليل الظاهر على هذا الاستسلام : ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ . فسمة الإسلام هي الوحدة بين الشعور والسلوك ، وبين العقيدة والعمل ،وبين الإيمان القلبي والإحسان العملي "[4]

٤- أن الإحسان هو أعلى درجات الإيمان والإسلام ، وهو كما قال ﷺ : " أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك "[5] ، وحين تصل النفس إلى هذه المرتبة ، فإنها تفعل الطاعات كلها ، وتنتهي عن المعاصي كلها ، وتراقب الله في الصغيرة والكبيرة وفي السر والعلن على السواء "[6].

وهذه المراتب الثلاث مترابطة متكاملة هي سمة هذا الدين هي الوحدة بين الشعور والسلوك بين العقيدة والعمل ، بين الإيمان القلبي والإحسان العملي ، بذلك تستحيل العقيدة منهجًا للحياة كلها ، وبذلك تتوحد الشخصية الإنسانية بكل نشاطها واتجاهاتها "[7]

---

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٧ .
(٢) ينظر في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٥٠ وما بعدها .
(٣) سورة البقرة الآية ١١٢ .
(٤) في ظلال القرآن ١/ ١٠٤.
(٥) رواه البخاري في كتاب الإيمان ، باب سؤال جبريل للنبي ﷺ ١/ ٢٧ برقم ٥٠ ، ومسلم في كتاب الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ١/ ٤٦-٤٩ برقم ٨،٩،١٠
(٦) في ظلال القرآن ١/ ١٩٢ ، ٢/ ٧٦٢ ، ٩٦٣ .
(٧) المصدر السابق ١/ ١٠٤ .

المبحث الرابع

الكبائر وأحكام مرتكبيها

أولاً : تعريف الكبائر :

أشارت نصوص الكتاب والسُّنَّة إلى أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر منها: قوله تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ (١) . وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ (٣). ومن السُّنَّة قوله ﷺ : " اجتنبوا السبع الموبقات .. الحديث " (٤)، وقوله ﷺ: " ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : الإشراك بالله،..الحديث" (٥).

* وقد اختلف العلماء في ضابط الكبيرة وتعريفها ، على أقوال عديدة ، تزيد على عشرين قولًا ، وأكثرها متقاربة ، وبعضها ضعيف (٦).

وأرجح تعاريف الكبيرة أنها " ما ترتب عليه حدٌ في الدنيا ، أو تُوعِّد عليها بالنار

---

(١) سورة النساء ، الآية ٣١ .

(٢) سورة النجم ، الآية ٣٢ .

(٣) سورة الكهف ، الآية٤٩.

(٤) رواه البخاري : في كتاب : الوصايا ٣/ ١٠١٧ ، برقم ٢٦١٥ ، ومسلم في الإيمان باب بيان الكبائر ١/ ٨٨ برقم ٨٩ . .

(٥) رواه البخاري : في كتاب : الشهادات باب ما قيل في شهادة الزور ٢/ ٩٣٩ ،برقم ٢٥١١ ومسلم في الإيمان باب الكبائر ١/ ٨٨ برقم ٨٧ .

(٦) انظر هذه الأقوال في : فتح الباري لابن حجر ١٠/ ٤١٠. وشرح مسلم للنووي ٢/ ٨٥- ٨٧، ومدارج السالكين لابن القيم دار الكتاب العربي ب.ت ط٣عام ١٤١٦هـ ١/ ٣٢١ ، وشرح العقيدة الطحاوية ص ٥٢٥ .

أو اللعنة أو الغضب "[١].

وهذا التعريف مرجعه إلى ما ذكره الله ورسوله فهو حدٌّ متلقى من خطاب الشارع، ولأنه المأثور عن كثير من السلف بخلاف غيره من الأقوال، كما أنه يمكن به التفريق بين الصغائر والكبائر[٢].

وبناءً على التعريف السابق فليس هناك حد معين لعدد الكبائر، وما قيل في حدها من أنها ثلاث أو سبع أو سبع عشرة أو سبعين أو سبعمائة فليس منضبطا، لأن أنواع الكبائر غير محصورة بعدد، وما ورد منها في بعض الأحاديث فليس المقصود منه حصرها أو عدها، بل يذكر منها ما يناسب الحال ويقتضيه المقام.

ثانيًا: حكم مرتكب الكبيرة:

مسألة حكم مرتكب الكبيرة من مسائل الأسماء والأحكام[٣]، والتي ظهرت في آخر عصر الصحابة - رضي الله عنهم - [٤] والناس فيها طرفان ووسط ويمكن بيان ذلك بإيجاز فيما يأتي:

أ ـ حكم مرتكب الكبيرة عند أهل السُّنَّة والجماعة:

يعتقد أهل السُّنَّة والجماعة أن من ارتكب كبيرة - خلا الشرك بالله - ولم يستحلها، فإنه لا يكفر بل يسمى مؤمنًا ناقص الإيمان، أو مؤمنًا بإيمانه فاسقًا بكبيرته، وأن التوبة تجبها، وإن مات ولم يتب منها فهو تحت مشيئة الله تعالى، إن شاء غفر له ذنبه ابتداءً، وأدخله الجنة تفضلًا، وإن شاء عذبه بقدر ذنبه ثم يخرجه من النار، ويدخله الجنة، لأنه لا يخلد في النار موحد، وهذا ما دلت عليه نصوص

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٢٥.

(٢) وهو قول بن عباس وبن جبير ومجاهد والحسن والضحاك ورجحه شيخ الإسلام ابن تيمية، انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١١/ ٦٥٤، وتفسير الطبري ٨/ ٢٤٦، وشرح العقيدة الطحاوية ص٥٢٦.

(٣) المراد بالأسماء: أسماء الدين مثل: مؤمن ومسلم وكافر وفاسق، والمراد بالأحكام: أحكام أصحاب هذه الأسماء في الدنيا والآخرة، انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٣/ ٣٨.

(٤) انظر: الملل والنحل للشهرستاني ١/ ٤٠، والفرق بين الفرق للبغدادي ص٧.

الكتاب والسُّنَّة في مجموعها .[١]

ب ـ حكم مرتكب الكبيرة عند الخوارج والمعتزلة :

١- يرى الخوارج أن مرتكب الكبيرة كافر خارج عن الإيمان في الدنيا ، ومخلد في النار في الآخرة.

٢- أما المعتزلة فترى أن مرتكب الكبيرة يخرج من الإيمان لكنه لا يدخل في الكفر، وهذه هي المنزلة بين المنزلتين عندهم هذا في الدنيا ، أما في الآخرة فقد وافقوا الخوارج في الحكم عليه بالخلود في النار وإن كان عقابه دون عقاب الكفار.[٢]

ج ـ حكم مرتكب الكبيرة عند المرجئة :

ترى المرجئة أنه لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، وبالتالي فالكبائر لا تؤثر في إيمان مرتكبها، فمرتكب الكبيرة في الدنيا مؤمن كامل الإيمان ولا يدخل النار في الآخرة[٣].

ثالثًا : موقف سيد قطب - رحمه الله – من الكبائر وأهلها :

١ ـ يرى سيد قطب أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر :

ففي ظلال قوله تعالى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾[٤].

يقول- رحمه الله – : " في مقابل اجتناب الكبائر يعدهم الله برحمته وغفرانه،

---

(١) ينظر كلام أهل السُّنَّة وأدلتهم في : صحيح البخاري ، كتاب الإيمان ١/ ١٣، والتمهيد لابن عبد البر ٤/ ٤٩، وتفسير الطبري ٨/ ٤٥٠ وشرح الطحاوية ص٤٤٢ ، وشرح الواسطية لهراس ص ٢٣٣ .

(٢) انظر في ذلك : شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ، ص ٧٠١- ٧١٢ .و مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ، ١/ ٢٦٠- ٢٧٠ ، والملل والنحل للشهرستاني ١/ ١٨٥- ١٣٢ .

(٣) ينظر كلامهم في : الملل والنحل للشهرستاني ١/ ١٣٩ ، والتمهيد لابن عبد البر ٤/ ٢٤٢، والبرهان في معرفة عقائد أهل الأديان ، لأبي الفضل السكسكي ، مكتبة المنار ، ط١ ، عام ١٤٠٨ ، ص ٣٣. وشرح العقيدة الطحاوية ص ٤٤٤.

(٤) سورة النساء ، الآية ٣١.

وتجاوزه عما عدا الكبائر، مراعاة لضعفهم الذي يعلمه - سبحانه - وتيسيرًا عليهم، وتطمينًا لقلوبهم وعونًا لهم على التحاجز عن النار باجتناب الفواحش الكبار... ألا ما أسمح هذا الدين! وما أيسر منهجه ! على كل ما فيه من هتاف بالرفعة والسمو والطهر .. وعلى كل ما فيه من التكاليف والحدود ، والأوامر والنواهي التي يراد بها إنشاء نفوس زكية طاهرة ، وإنشاء مجتمع نظيف سليم، إن هذا الهتاف وهذه التكاليف ، لا تغفل في الوقت ذاته - ضعف الإنسان وقصوره - ولا تتجاوز به حدود طاقته وتكوينه ، ومن ثم هذا التوازن بين التكليف والطاقة ، وبين الأشواق والضرورات ، وبين الدوافع والكوابح ، وبين الترغيب والترهيب ، والتهديد والإطماع ، فحسب هذا الدين من النفس البشرية أن يتم اتجاها لله ، وأن تبذل غاية الجهد في طاعته ورضاه . فأما بعد ذلك فهناك رحمة الله ... ترحم الضعيف ، وتعطف على القصور، وتقبل التوبة وتكفر الذنب ، وآية بذل الطاقة اجتناب كبائر ما نهى الله عنه ، أما مقارفة هذه الكبائر - وهي واضحة ضخمة بارزة - فهي دليل على أن النفس لم تبذل المحاولة المطلوبة ... وحتى هذه - أي الكبائر - فالتوبة منها في كل وقت مع الإخلاص مقبولة برحمة الله التي كتبها على نفسه، وقد قال فيها: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[٥].. وعدهم من المتقين . إنما نحن بصدده هنا هو تكفير السيئات والذنوب مباشرة من الله ، متى اجتنبت الكبائر وهذا هو وعد الله هنا وبشراه للمؤمنين " .[٦]

* **ويقول أيضا :** " والله يعلم ضعف هذا المخلوق البشري ، فيجعل الحد الذي يصلح به للقيادة والذي ينال معه ما عند الله ، هو اجتناب كبائر الإثم والفواحش، لا صغائر الإثم والذنب، وتسعه رحمته بما يقع منه من هذه الصغائر لأنه أعلم بطاقته، وهذا فضل من الله ، وسماحة ورحمة بهذا الإنسان ، توجب الحياء من الله"[٧].

---

(٥) سورة آل عمران ، الآية ١٣٥ .

(٦) في ظلال القرآن ٢/ ٦٤٠- ٦٤١ بتصرف يسير .

(٧) المصدر السابق ٢/ ٦٤٠- ٦٤١ بتصرف يسير.

ويذكر سيد – رحمه الله – قصة عمر بن الخطاب [(١)] – رضي الله عنه – وهو المتحرج المتشدد الشديد الحساسية بالمعصية عندما قدم ناس من مصر،فقالوا لعمر – رضي الله عنه –: إنا نرى أشياءً في كتاب الله ، أمر أن يعمل بها ، فلا يعمل بها ، فجمعهم عمر في بهو[(٢)]، فأخذ أدناهم رجلًا ، فقال : أنشدك الله ، وبحق الإسلام عليك، أقرأت القرآن كله؟ قال : نعم . قال : فهل أحصيته في نفسك ؟ فقال : اللهم لا – ولو قال : نعم ، لخصمه – ، قال : هل أحصيته في بصرك ؟ هل أحصيته في لفظك ؟ هل أحصيته في أثرك ... ثم تتبعهم حتى أتى على آخرهم ، فقال: ثكلت عمر أمه ! أتكلفونه أن يقيم الناس على كتاب الله ؟ قد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات، وتلا قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[(٣)]"[(٤)].

٢ـ عدد الكبائر:

يرى– سيد– أن الكبائر غير محصورة بعدد ، وأنها تختلف عددًا ونوعًا بين بيئة وبيئة ،يقول: " أما ما هي الكبائر؟ فقد وردت أحاديث تعدد أنواعًا منها – ولا تستقصيها – وذلك بدليل احتواء كل حديث على مجموعة تزيد أو تنقص ، مما يدل على أن هذه الأحاديث كانت تعالج حالات واقعة ، فتذكر من الكبائر – في كل حديث – ما يناسب الملابسة الحاضرة ، والمسلم لا يعسر عليه أن يعلم " الكبائر " من الذنوب ، وإن كانت تختلف عددًا ونوعًا بين بيئة وبيئة ، وجيل وجيل ! "[(٥)].

٣ـ حكم مرتكب الكبيرة عند سيد قطب :

يرى سيد–رحمه الله– أن مرتكب الكبيرة – عدا الشرك – لا يخرج من الإسلام،

(١) هو:الخليفة الراشد والإمام العادل عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى ، ثاني الخلفاء الراشدين ، شهد الوقائع كلها ،وهو أول من دون الدواوين واتخذ بيت المال وفتح الفتوحات، قتله أبو لؤلؤة المجوسي عام ٢٣هـ ،انظر:الإصابة لابن حجر ٧/ ٧٤ ،والأعلام للزركلي، ٥/ ٤٦ .

(٢) البهو: هو البيت المقدم أمام البيوت، أو الواسع من الأرض الذي ليس فيه جبال ، أو مكان البقر، انظر : لسان العرب ١/ ٥٢٨

(٣) سورة النساء ، الآية ٣١ .

(٤) في ظلال القرآن ٢/ ٦٤١ .

(٥) المصدر السابق نفسه.

وأنه في الآخرة تحت مشيئة الله إذا مات ولم يتب منها .

ففي ظلال قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (١)، يقول: " إن الشرك انقطاع ما بين الله والعباد ، فلا يبقى لهم معه أمل في مغفرة ، إذا خرجوا من هذه الدنيا وهم مشركون .. أما ما وراء هذا الإثم المبين الواضح الظاهر ، والظلم العظيم الوقح الجاهر، أما ما وراء ذلك من الذنوب والكبائر فإن الله يغفره – لمن شاء – فهو داخل في حدود المغفرة – بتوبة أو من غير توبة كما تقول بعض الروايات المأثورة الواردة – ما دام العبد يشعر بالله ، ويرجو مغفرته ويستيقن أنه قادر على أن يغفر له وأن عفوه لا يقصر عن ذنبه – وهذا منتهى الأمد في تصوير الرحمة التي لا تنفذ ولا تحد ، والمغفرة التي لا يوصد لها باب ، ولا يقف عليها بوَّاب!.

جاء في الصحيحين عن أبي ذر (٢)– رضي الله عنه – قال : " خرجت ليلة من الليالي، فإذا رسول الله ﷺ يمشي وحده ، وليس معه إنسان . قال : فظننت أنه يكره أن يمشي معه أحد . قال : فجعلت أمشي في ظل القمر ، فالتفت فرآني، فقال : " من هذا ؟ فقلت : أبو ذر – جعلني الله فداك – قال: يا أبا ذر تعال قال : فمشيت معه ساعة. فقال لي : إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة ، إلا من أعطاه الله خيرًا ، فجعل يبثه عن يمينه وشماله وبين يديه ووراءه ، وعمل فيه خيرًا قال : فمشيت معه ساعة ، فقال لي : اجلس ها هنا، فأجلسني في قاع حوله حجارة ، فقال : أجلس ها هنا حتى أرجع إليك ، قال : فانطلق في الحرة ، حتى لا أراه ، فلبث عني ، حتى إذا طال اللبث .. ثم إني سمعته وهو مقبل يقول : وإن زنى وإن سرق . قال : فلما جاء لم أصبر حتى قلت : يا نبي الله – جعلني الله فداك – من تكلمه في جانب الحرة ؟ فإني سمعت أحدًا يرجع إليك ، قال : ذلك جبريل ، عرض لي جانب الحرة ، فقال بشر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة ، قلت أيا جبريل ، وإن سرق وإن

---

(١) سورة النساء ، الآية٤٨ .

(٢) هو : جندب بن جنادة بن سفيان الغفاري ، صحابي جليل ، أول من حيا النبي بتحية الإسلام ، سكن دمشق واستقدمه عثمان إلى المدينة ، ثم سكن الربذة حتى مات سُنَّة ٣٢ هـ انظر : سير أعلم النبلاء ٢/ ٤٦ والتهذيب ١٢/ ٩٠ .

زنى ؟ قال : نعم . قلت : وإن سرق وإن زنى، قال نعم ، وإن شرب الخمر " (١).

* وفي الحديث الآخر: قال رسول الله ﷺ : " **ما من نفس تموت لا تشرك بالله شيئًا، إلا حلت لها المغفرة ، إن شاء الله عذبها ، وإن شاء غفر لها . إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** " (٢).

*وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : " كنا أصحاب النبي ﷺ لا نشك في قاتل النفس ، وآكل مال اليتيم، وقاذف المحصنات، وشاهد الزور ، حتى نزلت ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ فأمسك أصحاب النبي ﷺ عن الشهادة " (٣).

*وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: " قال الله عز وجل : من علم أني ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفرت له ولا أبالي، ما لم يشرك بي شيئًا " (٤).

وفي هذا الحديث الأخير لمحة كاشفة ، فالمهم هو شعور القلب بالله على حقيقته - سبحانه - ومن وراء هذا الشعور الخير والرجاء والخوف والحياء ، فإذا وقع الذنب فمن ورائه هذه اللمسات تؤهل للتقوى وتؤهل للمغفرة " (٥).

ويقول أيضًا : " وقد وصم الله اليهود بالشرك ، لأنهم كانوا يتخذون أحبارهم أربابًا من دونالله - وقبلوا منهم التحليل والتحريم .. فجُعلوا بذلك مشركين - الشرك الذي يغفر الله كل ما عداه ، حتى الكبائر - " وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر " ، وداخل هذا النطاق- أي إفراد الله بالإلوهية - يبقى المسلم مسلمًا والمؤمن مؤمنًا ، ويطمع أن يغفر له ذنوبه ومنها كبائره ، أما خارج هذا النطاق فهو الشرك

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز ، باب في الجنائز ١/ ٤١٧ برقم ١١٨٠ ومسلم في الإيمان باب من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة ١/ ٩٠-٩١ برقم ٩٤ وأحمد ٥/ ١٥٢ برقم ٢١٣٤٧ . واللفظ له .

(٢) رواه ابن أبي حاتم ٣/ ٥٤٢٥ وفي سنده ضعف أنظر : تفسير ابن كثير، تحقيق :مصطفى السيد وآخرون ، مكتبة أولاد الشيخ ، القاهرة ، ط١ ، عام ١٤٢١ هـ ، ٤/ ١٠٤ .

(٣) رواه ابن أبي حاتم ٣/ ٥٤٢٦ ، وفي سنده الهيثم بن جماز ، وهو ضعيف ، المصدر السابق ٤/ ١٠٨ .

(٤) رواه الطبراني في المعجم الكبير عن ابن عباس ٩/ ٢٤٠ برقم ١١٤٥٠ .

(٥) في ظلال القرآن ٢/ ٦٧٨- ٦٧٩

الذي لا يغفره الله أبدًا ...إذ هو شرط الإيمان وحد الإسلام [١].

ويقول أيضًا : " ولا غفران لذنب الشرك – متى مات صاحبه عليه – بينما باب المغفرة مفتوح لكل ذنب سواه ،عندما يشاء الله ، والسبب في تعظيم جريمة الشرك وخروجها من دائرة المغفرة ،أن من يشرك بالله يخرج عن حدود الخير والصلاح تمامًا، وتفسد كل فطرته ، بحيث لا تصلح أبدًا " [٢].

ومما سبق نقله من نصوص نجد أن سيد – رحمه الله – موافق لأهل السُّنَّة في مسألة الكبائر وأحكام أهلها ، مخالف للمرجئة والخوارج والمعتزلة .

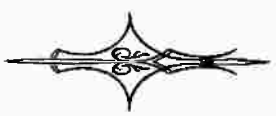

(١) المصدر السابق ٢/ ٦٨٨ بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق ٢/ ٧٦٠ .

المبحث الخامس

التكفير

توطئة :

من أبرز القضايا التي أثيرت حول سيد قطب - رحمه الله - قضية التكفير، حيث وجهت له تهمة تكفير أعيان المسلمين حكامًا ومحكومين دون ضوابط ، بناءً على عبارات له في الظلال وغيره ، كما سيأتي بيانه .

والسبب في ذلك يعود إلى أحد الأمور الآتية :

١- سوء فهم لكلام سيد - رحمه الله - .

٢- الجهل بأصول التكفير عند أهل السُّنَّة والجماعة .

٣- العداء وسوء القصد والرغبة في تشويه فكر سيد قطب - رحمه الله - خوفًا من تأثيره .

٤- عدم جمع كلامه المتفرق حول الموضوع والاعتماد على العبارات الموهمة أو المقطوعة من سياقها ، دون النظر في الضوابط التي وضعها - سيد - أثناء الكلام عن هذه القضية .

وقد رأينا مجموعتين تخرجان بنتائج خاطئة من قراءة كلام سيد حول الموضوع:

الأولى : الجماعة التي ظهرت في مصر في السبعينات باسم "الجماعة الإسلامية" واشتهرت باسم" جماعة التكفير والهجرة " ، والتي توكأت على كلام سيد وراحت تبحث في كتبه عن عبارات موهمة أو مقطوعة من سياقها وتحملها ما لا تحتمل ، وخرجت بتكفير المسلمين عمومًا إلا من كان في جماعتهم [1].

الثانية : مجموعة من الذين قرأوا كلام سيد قراءة مبسترة ، رافقها سوء الفهم

---

(١) هذه الجماعة تزعمها شكري مصطفى . وانظر: في مناقشة آراء الجماعة والرد عليها": سيد قطب بين العاطفة الموضوعية ، للمستشار :سالم البهنساوي ، والحكم بما أنزل الله وأهل الغلو، لمحمد بن سرور زين العابدين .

أو التقصير في البحث ، وربما سوء النية والقصد ، فرفعت أصواتها بالشجب والاستنكار، وراحت تتهم سيد في عقيدته وفكره وتنسب إليه كل بلية وكل انحراف يحدث في الواقع المعاصر .

وانطلاقًا من أمانة البحث والموضوعية فلا بد من جمع ما تفرق من كلام سيد ، والنظر في سياق النصوص لمعرفة الأسس التي بني عليها كلامه والضوابط الواردة فيها ، وعرض ذلك على منهج أهل السُّنَّة والجماعة لمعرفة مدى الموافقة أو المخالفة وذلك من خلال المطالب الآتية :

المطلب الأول

التكفير عند أهل السُّنَّة ومخالفيهم

باب التكفير وعدم التكفير باب عظمت فيه الفتنة ، وكثر فيه الافتراق ، وتشعبت فيه والآراء ، والناس فيه على طرفين ووسط :

الطائفة الأولى : تكفر بكل ذنب ، فمرتكب الذنوب والكبائر عندهم يخرج من الإيمان ، ويدخل في الكفر كما تقول الخوارج ، أو يكون في منزلة بين المنزلتين كما تقول المعتزلة ، وفي الآخرةأوجبوا له الخلود في النار .

الطائفة الثانية : لا تكفر أحدًا من أهل القبلة بأي ذنب ، فتنفي التكفير نفيًا عامًا، وهم المرجئة ، حيث يقولون :لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة.

الطائفة الثالثة : وهم أهل السُّنَّة والجماعة ، وهم وسط بين الطائفتين . حيث لا يكفرون بكل ذنب كما تفعل الخوارج ، ولا ينفون التكفير كما تفعل المرجئة .

فمنهج التكفير عند أهل السُّنَّة والجماعة يقوم على أسس منها:

١ – التحذير من التكفير بغير علم ، كونه حكمًا شرعيًا مرجعه إلى ما جاء في الكتاب والسُّنَّة .

٢ – التفريق بين التكفير المطلق وتكفير المعين ، فالأول هو تنزيل الحكم بالكفر على الفعل والقول دون الحكم على الفاعل ، والثاني تنزيل الحكم على شخص الفاعل.

٣– لابد لتكفير المعين من توفر شروط في الفاعل هي : البلوغ والعقل والتعمد والاختيار ، وفي الفعل أن يكون الفعل أو القول مما ثبت بالأدلة الشرعية أنه كفر مخرج من الملة.

كما يشترط انتفاء الموانع كالجهل والخطأ والتأول السائغ والإكراه، بالإضافة إلى قيام الحجة [1].

(١) تنظر هذه القواعد في: مجموع فتاوى ابن تيميه ٥/ ٥٤٥، ١٠/ ٣٧٢، وضوابط التكفير لراشد الراشد، مكتبة الرشد، الرياض، ط ١، عام ١٤٢٧هـ، ص ٤٣ وما بعدها، وقواعد التكفير لعبد النعم حليمة أبو بصير، دار البشير، الأردن، ط١، عام ١٤١٥هـ.

المطلب الثاني

سيد قطب وقضية التكفير

الذين يتهمون سيد قطب بتكفير المسلمين يعتمدون على مجموعة من النصوص الموجودة في كتبه ، لذا كان لا بد من جمع هذه النصوص وتحليلها لتعطينا فكرة كاملة عن منهج الرجل في التكفير ، وهذه النصوص على قسمين :

القسم الأول : نصوص تشرح آيات فيها أحكام بالكفر على بعض الأعمال.

القسم الثاني : نصوص تصف واقع المسلمين المعاصر وتقارن بينه وبين ما جاء في القرآن الكريم ، بغرض إظهار مدى الانحراف الذي أصاب الأمة الإسلامية في دينها في كثير من القضايا المعاصرة ، وفيها عبارات موهمة إذا لم تضم إلى غيرها أو قطعت من سياقها فهم منها القارئ التكفير .

لذا كان لا بد من عرض هذه النصوص في سياقها كاملة والتعقيب على كل نص بما يدل عليه في سياقه ثم استخلاص النتائج ، وبيان ذلك في الفرعين الآتيين:

الفرع الأول : وقفات مع النصوص :

النص الأول :

يقول – رحمه الله – في تفسير سورة إبراهيم – عليه السلام – : " إن الغاية الأساسية من البلاغ والإنذار، هي أن يعلم الناس " أنما هو إله واحد" فهذه هي قاعدة دين الله التي يقوم عليها منهجه في الحياة ، وليس المقصود بطبيعة الحال مجرد العلم ، إنما المقصود هو إقامة حياتهم على قاعدة هذا العلم ... ونحن لا ندرك مرامي هذا القرآن قبل أن ندرك حدود العقيدة في هذا الدين ، وقبل أن ندرك مدلولات " شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله " على المستوى الواسع البعيد ، وقبل أن نفهم مدلول العبادة لله وحده ونحدده بأنه الدينونة لله وحده لا في لحظات الصلاة ، ولكن في كل شأن من شؤون الحياة .

ثم يقرر سيد - رحمه الله - أن عبادة الأصنام لا تتمثل في الصورة الساذجة التي كان يزاولها العرب في الجاهلية ، أو غيرهم في شتى الوثنيات ، لأن هذه صورة من صور الشرك فقط ، بينما الشرك بالله المخالف لشهادة " أن لا إله إلا الله " يتمثل في كل وضع وفي كل حالة لا تكون فيها الدينونة في كل شأن من شؤون الحياة خالصة لله وحده ، ويكفي أن يدين العبد لله في جوانب من حياته بينما هو يدين في جوانب أخرى لغير الله حتى تتحقق صورة الشرك وحقيقته ، وتقديم الشعائر ليس إلا صورة واحدة من صور الدينونة الكثيرة ، والأمثلة الحاضرة في حياة البشر اليوم تعطينا المثال الواقعي للشرك في أعماق طبيعته ، إن العبد الذي يتوجه لله بالاعتقاد في ألوهيته وحده ، ثم يدين لله في الوضوء والطهارة والصلاة والصوم والحج وسائر الشعائر، بينما هو في الوقت ذاته يدين في حياته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لشرائع من عند غير الله، ويدين في قيمه وموازينه الاجتماعية لتصورات واصطلاحات من صنع غير الله، ويدين في أخلاقه وتقاليده وعاداته وأزيائه لأرباب من البشر تفرض عليه هذه الأخلاق والتقاليد والعادات والأزياء - مخالفة لشرع الله وأمره - إن هذا العبد يزاول الشرك في أخص حقيقته، ويخالف عن شهادة " أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله " في أخص حقيقتها،وهذا ما يغفل عنه الناس اليوم فيزاولونه في ترخص وتميع ، وهم لا يحسبونه الشرك الذي كان يزاوله المشركون في كل زمان ومكان "[1].

ثم يوضح " أن الأصنام ليس من الضروري أن تتمثل في تلك الصور الأولية الساذجة ، فالأصنام ليست سوى شعارات للطاغوت ، يتخفى وراءها لتعبيد الناس باسمها ، وضمان دينونتهم له من خلالها، إن الصنم لم يكن ينطق أو يسمع أو يبصر ، إنما كان السادن أو الكاهن أو الحاكم يقوم من ورائها يتمتم حولها بالتعاويذ والرقى، ثم ينطق باسمها بما يريد هو أن ينطق لتعبيد الجماهير وتذليلها ! .

فإذا رفعت " القومية " شعارًا ، أو رفع " الوطن " شعارًا ، أو رفع " الشعب" شعارًا أو رفعت " الطبقة " شعارًا - ثم أريد الناس على عبادة هذه الشعارات من دون الله ، وعلى التضحية لها بالنفوس والأموال والأخلاق والأعراض ،

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢١١٤- ٢١١٥ بتصرف يسير .

بحيث كلما تعارضت شريعة الله وقوانينه وتوجيهاته وتعليماته، مع مطالب تلك الشعارات ومقتضياتها ، نُحيت شريعة الله وقوانينه وتوجيهاته وتعاليمه ، ونفذت إرادة تلك الشعارات – أو بالتعبير الصحيح الدقيق : إرادة الطواغيت الواقفة وراء هذه الشعارات – كانت هذه هي عبادة الأصنام من دون الله ، فالصنم ليس من الضروري أن يتمثل في حجر أو خشبة، ولقد يكون الصنم مذهبًا أو شعارًا ! إن الإسلام لم يجيء لمجرد تحطيم الأصنام الحجرية والخشبية ! ولم تبذل فيه تلك الجهود الموصولة ، من موكب الرسل الموصول ، ولم تقدم من أجله تلك التضحيات الجسام وتلك العذابات والآلام لمجرد تحطيم الأصنام من الأحجار والأخشاب !.

إنما جاء الإسلام ليقيم مفرق الطريق بين الدينونة لله وحده في كل أمر وفي كل شأن ، وبين الدينونة لغيره في كل هيئة وفي كل صورة ، ولا بد من تتبع الهيئات والصور في كل وضع وفي كل وقت لإدراك طبيعة الأنظمة والمناهج القائمة ، وتقرير ما إذا كانت توحيدًا أو شركًا ؟ دينونة لله وحده أم دينونة لشتى الطواغيت والأرباب والأصنام!.

والذين يظنون أنفسهم في " دين الله " ؛ لأنهم يقولون بأفواههم " نشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله " ويدينون لله فعلاً في شؤون الطهارة والشعائر والزواج والطلاق والميراث ، بينما هم يدينون فيما وراء هذا الركن الضيق لغير الله، ويخضعون لشرائع لم يأذن بها الله – وكثرتها مما يخالف مخالفة صريحة شريعة الله – ثم هم يبذلون أرواحهم وأموالهم وأعراضهم وأخلاقهم – أرادوا أم لم يريدوا – ليحققوا ما تتطلبه منهم الأصنام الجديدة ، فإذا تعارض دين أو خلق أو عرض مع مطالب هذه الأصنام ، نبذت أوامر الله فيها ونفذت مطالب هذه الأصنام .

الذين يظنون أنفسهم " مسلمين " وفي " دين الله " وهذا حالهم ، عليهم أن يستفيقوا لما هم فيه من الشرك العظيم !!! .

إن دين الله ليس بهذا الهزال الذي يتصوره من يزعمون أنفسهم " مسلمين " في مشارق الأرض ومغاربها ، إن دين الله منهج شامل لجزئيات الحياة اليومية وتفصيلاتها ، والدينونة لله وحده في كل تفصيل وكل جزئية من جزئيات الحياة اليومية وتفصيلاتها – فضلاً على أصولها وكلياتها – هي دين الله ، وهي الإسلام

الذي لا يقبل الله من أحد دينًا سواه ، وإن الشرك بالله لا يتمثل فحسب في الاعتقاد بألوهية غيره معه ، ولكنه يتمثل ابتداءً في تحكيم أرباب غيره معه .

وإن عبادة الأصنام لا تتمثل في إقامة أحجار وأخشاب ، بقدر ما تتمثل في إقامة شعارات لها كل ما لتلك الأصنام من نفوذ ومقتضيات ! ولينظر الناس في كل بلد لمن المقام الأعلى في حياتهم ؟ ولمن الدينونة الكاملة ؟ ولمن الطاعة والإتباع والامتثال؟ فإن كان هذا كله لله فهم في دين الله ، وإن كان لغير الله – معه أو من دونه – فهم في دين الطواغيت والأصنام.. والعياذ بالله .﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [1]." [2].

والمتأمل في النص السابق يجد أن سيدًا – رحمه الله – يشخّص واقعًا أليمًا لبعض المسلمين في هذا العصر ، يتمثل في سوء فهمهم لمدلول التوحيد والعبادة ، ولمعنى ومقتضيات شهادة –أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله –وكذا سذاجة فهم البعض لمعنى الأصنام،ومعنى الشرك وحصره في صورته الحسية التي كان عليها المشركون من أصنام وآلهة ، وكذا انحسار مفهوم الدين وقصره على بعض جوانبه الشعائرية دون النظر في الأوضاع التي تناقض أصل الدين في باقي جوانب الحياة الإنسانية .

ومن خلال هذا يضع سيد صفات محددة لمن يحكم عليه بالكفر والشرك منها :

أ – الدينونة لغير الله في مناهج الحياة والشرائع والقوانين .

ب– الخضوع – مع الرضى – للشرائع البشرية المخالفة صراحة لشريعة الله .

ج– بذل ما يملكون للأصنام المعنوية الجديدة .

هـ– تقديم مطالب الأصنام العصرية ونبذ أوامر الله إذا تعارضت مطالب الأصنام مع دين الله .

ولا شك أن من توفرت فيهم الصفات السابقة مجتمعة فإن أهل السُّنَّة والجماعة

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ٥٢ .

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢١١٤– ٢١١٦ .

لا يقولون فيهم خلاف قول سيد " إنهم مشركون "[١].

النص الثاني :

في ظلال قوله تعالى :﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[٢].
يوضح سيد – رحمه الله – منهج القرآن في العقيدة والحركة بها والذي يقوم على بيان الحق وإظهاره ، وكذا بيان الباطل وكشفه ، وذلك لأن إنشاء اليقين الاعتقادي بالخير يقتضي رؤية الجانب المضاد من الباطل ليوجد الاندفاع بالحق عند أصحابه.

ويقرر أنه لا بد أن تبدأ كل حركة إسلامية بتحديد سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين ، ووضع العنوان المميز لكل منهما في عالم الواقع لا النظريات ، بحيث لا يختلط السبيلان ، ولا تلتبس ملامحهما .

ويؤكد سيد – رحمه الله – على أن هذا التحديد والوضوح كان كاملًا ، في حياة الرعيل الأول من هذه الأمة ، بفعل منهج القرآن في بيان سبيل المؤمنين وسبل المجرمين، ثم يقارن ذلك بوضع المسلمين المعاصر في هذا الباب ويقول : " ولكن المشقة الكبرى التي تواجه حركات الإسلام الحقيقية اليوم ليست في شيء من هذا ، إنها تتمثل في وجود أقوام من الناس من سلالات المسلمين ، في أوطان كانت في يوم من الأيام دارًا للإسلام ، يسيطر عليها دين ، وتحكم بشريعته ، ثم إذا هذه الأرض، وإذا هذه الأقوام تهجر الإسلام حقيقة ، وتعلنه اسما وإذا هي تتنكر لمقومات الإسلام اعتقادًا وواقعًا ، وإن ظنت أنها تدين بالإسلام اعتقادًا ! فالإسلام شهادة" أن لا إله إلا الله " ، وشهادة أن لا إله إلا الله تتمثل في الاعتقاد بأن الله – وحده – هو خالق هذا الكون المتصرف فيه ، وأن الله – وحده – هو الذي يتقدم إليه العباد بالشعائر التعبدية ونشاط الحياة كله ، وأن الله – وحده – هو الذي يتلقى منه العباد الشرائع ويخضعون لحكمه في شأن حياتهم كله ، وأيما فرد لم يشهد أن لا إله إلا الله – بهذا المدلول– فإنه لم يشهد ولم يدخل في الإسلام بعد ، كائنًا ما كان اسمه ولقبه ونسبه ، وأيما أرض لم تتحقق فيها شهادة أن لا إله إلا الله – بهذا المدلول – فهي أرض لم تدن بدين الله ، ولم تدخل في الإسلام بعد ، وفي الأرض اليوم أقوام من

(١) ينظر : في ظلال القرآن في الميزان . د/ صلاح الخالدي ، ص ٢١٠ .
(٢) سورة الأنعام ، الآية ٥٥ .

الناس أسماؤهم أسماء المسلمين ، وهم من سلالات المسلمين ، وفيها أوطان كانت في يوم من الأيام دارًا للإسلام ، ولكن لا الأقوام اليوم تشهد أن لا إله إلا الله - بذلك المدلول - ولا الأوطان اليوم تدين لله بمقتضى هذا المدلول، وهذا أشق ما تواجهه حركات الإسلام الحقيقية اليوم في هذه الأوطان مع هؤلاء الأقوام!.

أشق ما تعانيه هذه الحركات هو الغبش والغموض واللبس الذي أحاط بمدلول " لا إله إلا الله " ومدلول الإسلام في جانب ، وبمدلول الشرك وبمدلول الجاهلية في الجانب الآخر .

أشق ما تعانيه هذه الحركات هو عدم استبانة طريق المسلمين الصالحين ، وطريق المشركين المجرمين واختلاط الشارات والعناوين ، والتباس الأسماء والصفات ، والتيه الذي لا تتحدد فيه مفارق الطريق! .

ويعرف أعداء الحركات الإسلامية هذه الثغرة ، فيعكفون عليها توسيعًا وتمييعًا وتلبيسًا وتخليطًا حتى يصبح الجهر بكلمة الفصل تهمة يؤخذ عليها بالنواصي والأقدام ! تهمة تكفير " المسلمين " ، ويصبح الحكم في أمر الإسلام والكفر مسألة المرجع فيها لعرف الناس واصطلاحهم ، لا إلى قول الله ، ولا إلى قول رسول الله ﷺ!.

هذه هي المشقة الكبرى ، وهذه كذلك هي العقبة الأولى التي لا بد أن يجتازها أصحاب الدعوة إلى الله في كل جيل! .

يجب أن تبدأ الدعوة إلى الله باستبانة سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين ، ويجب ألا تأخذ أصحاب الدعوة إلى الله في كلمة الحق والفصل هوادة ولا مداهنة ، وألا تأخذهم فيه خشية ولا خوف ، وألا تقعدهم عنها لومة لائم ولا صيحة صائح ، انظروا ! إنهم يكفرون المسلمين ! .

إن الإسلام ليس بهذا التميع الذي يظنه المخدوعون ! إن الإسلام بيِّنٌ والكفر بيِّن ، الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله - بذلك المدلول- فمن لم يشهدها على هذا النحو ، ومن لم يفهمها في الحياة على هذا النحو، فحكم الله ورسوله فيه أنه من الكافرين الظالمين الفاسقين المجرمين " [٣].

(٣) في ظلال القرآن ٢/ ١١٠٥- ١١٠٧ بتصرف يسير .

والمتأمل في هذا النص يجد : أن سيدًا – رحمه الله – كان حريصًا على بيان حقيقة الإسلام وحقيقة الكفر والشرك وبيان طريق المسلمين وطريق المجرمين من خلال منهج القرآن الكريم، حيث شدد على ضرورة معرفة الدعاة والحركات لمدلول – لا إله إلا الله – الشامل ، وتعريف الناس بهذا المدلول وكشف محاولات الأعداء في تمييع هذا المدلول حتى تبقى الجماهير مخدوعة في حقيقة ما هي عليه .

ويوضح سيد أن مدلول – لا إله إلا الله – يعني إفراده سبحانه في اعتقاد ربوبيته وخلقه وتصرفه في الكون وإفراده سبحانه أيضًا في ألوهيته بتقديم الشعائر التعبدية وكل مناشط الحياة له وحده ، وإفراده سبحانه في تلقي الشرائع والأوامر والخضوع لها " وهذا هو المفهوم الشامل بحيث أن أي فرد أو قوم أو أرض لا تحقق هذا المدلول في الواقع ، فليست في دين الله .

فسيد – رحمه الله – يضع تعريفًا للمسلم ، بحيث أن كل من لم ينطبق عليه هذا التعريف فهو كافر هذا التعريف تحدده الصفات التالية :

أ – الإيمان بالله تعالى خالقًا ومتصرفًا في الكون وحده لا شريك له .

ب– تقديم الشعائر التعبدية ونشاط الحياة كله لله وحده لا شريك له .

ج – تلقي الشرائع من الله وحده والخضوع لحكمه سبحانه في شؤون الحياة كلها .

هذه الصفات هي معنى لا إله إلا الله ، وبها يكون الإنسان مسلمًا.

وبالتالي فسيد لا يكفر بإطلاق لكنه ينبه إلى نوع من الكفر لا ينتبه إليه الكثير ، وهو ما يتعلق بالشرط الثالث أي تلقي الشرائع من غير الله والخضوع لغير حكمه سبحانه ، أو ما يسميه سيد بـ" شرك الحاكمية " ، وله – رحمه الله – أدلته في تكفير أصحاب هذا النوع من الشرك سيأتي بيان بعضها عند التعقب على النص التالي .

وما ذكره سيد هنا هو ما عليه أهل السُّنَّة والجماعة قاطبة ، في تكفير كل من لم يفرد الله سبحانه في ربوبيته وفي ألوهيته وحاكميته .

كما يظهر في النص أن سيدًا – رحمه الله – ما كان حريصًا على إصدار أحكام الكفر على أفراد معنيين بقدر ما كان حريصًا على الصدع بحقيقة الإسلام وإزالة

الغبش الذي ران على سبيل المسلمين وسبيل المجرمين ليشحذ همم الدعاة والحركات الإسلامية لبيان الحق في هذا الباب الذي ضل فيه كثير من الناس و التبس عليهم أمره .

* وفيه إشارة أيضًا إلى أن من يجهر بهذا الحق فإن الأعداء سيتهمونه بتهمة "تكفير المسلمين" حتى يحجزوا بينه وبين الناس ، ومع ذلك فإن سيدًا - يرى أن من الواجب على الدعاة المضي في بيان الحق في هذا الباب دون خوف مما سيقال عنهم .

* ويقرر سيد أيضًا أن مرجع الحكم على الناس بالكفر ليس لأعراف الناس وأهوائهم وإنما لما يقرره الله تعالى ورسوله ﷺ ، ويؤكد على أن مفهوم الإسلام بيِّن ومفهوم الكفر بيِّن ، فمن لم يكن في الإسلام فهو الكفر .

النص الثالث :

في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) ﴾[1] . يقول سيد : " ولقد كان أكثر من في الأرض - كما هو الحال اليوم بالضبط - من أهل الجاهلية لم يكونوا يجعلون الله هو الحكم في أمرهم كله ، ولم يكونون يجعلون شريعة الله التي في كتابه هي قانونهم كله ، ولم يكونوا يستمدون تصوراتهم وأفكارهم ومناهج تفكيرهم ومناهج حياتهم من هدى الله وتوجيهه ، ومن ثم كانوا - كما هو الحال اليوم - في ضلالة الجاهلية ، لا يملكون أن يشيروا برأي ولا بقول ولا بحكم يستند على الحق ويستمد منه ، ولا يقودون من يطيعهم ويتبعهم إلا إلى الضلال ، كانوا - كما هم اليوم - يتركون العلم المستيقن ، ويتبعون الظن والحدس ، والظن والحدس لا ينتهيان إلا إلى الضلال ، ولذلك حذر الله رسوله من طاعتهم واتباعهم كي لا يضل عن سبيل الله .. هكذا على وجه الإجمال ، وإن كانت المناسبة الحاضرة حينذاك هي مناسبة تحريم بعض الذبائح وتحليل بعضها كما سيجيء في السياق .

فالذي يحكم على العباد بأن هذا مهتدٍ وهذا ضال هو الله وحده ، الذي يعلم

(١) سورة الأنعام ، الآية ١١٦ .

بحقيقة العباد وفق الميزان الإلهي ، وليس وفق قيم المجتمع وأحكامه المتغيرة من مكان لآخر وزمان لآخر وبالتالي فالمجتمع الذي يخرج عن قيم وموازين الله هو مجتمع غير إسلامي ، مجتمع جاهلي ، مجتمع مشرك بالله ، بغض النظر عن الصور والأشكال" [١].

وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾[٢]، يقول سيد : " وأمام هذا التقرير نقف لنتدبر هذا الحسم وهذه الصراحة في شأن الحاكمية والطاعة والإتباع في هذا الدين .

إن النص القرآني لقاطع في أن طاعة المسلم لأحد من البشر في جزئية من جزئيات التشريع التي لا تستمد من شريعة الله ، ولا تعتمد على الاعتراف له وحده بالحاكمية.. إن طاعة المسلم في هذه الجزئية تخرجه من الإسلام لله ، إلى الشرك بالله.

وفي هذا يقول ابن كثير[٣] -رحمه الله- : " وقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ أي: حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره ، فقدمتم عليه غيره فهذا هو الشرك، كقوله تعالى ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[٤].. الآية ، وقد روى في تفسيرها عن عدي بن حاتم[٥]- رضي الله عنه - أنه قال : يا رسول الله ما عبدوهم . فقال : " بلى : إنهم أحلوا لهم الحرام ، وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم " [٦].

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١١٩٥ - ١١٩٦ بتصرف يسير .

(٢) سورة الأنعام ، الآية ١٢١ .

(٣) هو: الإمام عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير ، قرشي النسب ، دمشقي الدار ، كان مفسرًا ومؤرخًا وفقيهًا ، ولد سنة ٧٠١ هـ تتلمذ على يد شيخ الإسلام ابن تيمية وله مصنفات كثيرة ، توفي سنة ٧٧٤ هـ ودفن مع ابن تيمية في مقبرة الصوفية بدمشق ، انظر : البدر الطالع للشوكاني ١/ ١٥٣ ومعجم المؤلفين ٢/ ٢٦٤ .

(٤) سورة التوبة ، الآية ٣١ .

(٥) هو : عدي بن حاتم بن عبد الله بن حشرج الطائي ، أسلم سنة ٧هـ وثبت مع قومه يوم الردة ، شهد فتح المدائن ، توفي سنة ٦٨ هـ ، انظر : الخلاصة للخزرجي ص٢٦٤

(٦) رواه :الترمذي في أبواب التعبير ٤/ ٣٤١ برقم ٥٠٩٣ ، وأحمد ٤/ ٣٧٨ ، والبيهقي في السنن الكبرى ١/ ١٦٦، وحسنه الألباني في غاية المرام ص٢٠

وعن السدي [١] في تفسير قوله تعالى:﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ قال:"استنصحوا الرجال،ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، ولهذا قال تعالى:﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ﴾[٢]. أي : الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام ، وما حلله فهو الحلال ، وما شرعه اتبع ، وما حكم به نفذ " [٣].

* فهذا قول السدي وذاك قول ابن كثير، وكلاهما يقرر في حسم وصرامة ووضوح - مستمدة من حسم النص القرآني وصرامته ووضوحه ، ومن حسم التفسير النبوي للقرآن وصرامته ووضوحه كذلك - أن من أطاع بشرًا في شريعة من عند نفسه ، ولو في جزئية صغيرة إنما هو مشرك ، وإن كان في الأصل مسلمًا ثم فعلها فإنما خرج بها من الإسلام إلى الشرك أيضًا ، مهما بقي بعد ذلك يقول : أشهد أن لا إله إلا الله بلسانه ، بينما هو يتلقى من غير الله ، ويطيع غير الله .

*وحين ننظر إلى وجه الأرض اليوم - في ضوء هذه التقريرات الحاسمة - فإننا نرى الجاهلية والشرك - ولا شيء غير الجاهلية والشرك - إلا من عصم الله ، فأنكر على الأرباب الأرضية ما تدعيه من خصائص الألوهية ، ولم يقبل منها شرعًا ولا حكمًا - إلا في حدود الإكراه) [٤].

والمتأمل في هذا النص يجد :

أن سيدًا - رحمه الله - يقرر إتباعًا للنص القرآني الصريح وللحديث النبوي الشريف ولكلام السلف وأهل العلم كالسدي وابن كثير، أن طاعة الشياطين - من الإنس والجن - والتحاكم إليهم واتباعهم ، شرك وخروج عن الإسلام ، وهذه أدلته في الحكم على أصحاب هذا النوع من الشرك بالكفر، فلا يمكن أن تجتمع دعوى الإسلام مع التلقي من غير الله وطاعة غير الله .

---

(١) هو: إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة ، أبو محمد الحجازي ، ثقة ، تابعي انظر : سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٦٤.

(٢) سورة التوبة ، الآية٣١.

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٤/ ١٦٤٥ .

(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١١٩٧- ١١٩٨.

كما نجده يقرر أن واقع الأرض اليوم – إلا من عصم الله – ينطبق عليه اسم الشرك والجاهلية في ضوء التقريرات الحاسمة في هذا الباب .

وهنا لفته مهمة : وهي أن سيدًا – رحمه الله – يستثني من حكمه بالشرك والكفر من عصمه الله فأنكر على هذه الأرباب ما تدعيه من خصائص الألوهية ولم يقبل منها شرعًا ولا حكمًا إلا في حدود الإكراه ، وكلامه هنا هو ما تدل عليه الأدلة من النصوص الشرعية في استثناء المكره من أحكام الكفر .

٤ـ النص الرابع :

بعد أن بيَّن سيد – رحمه الله – ضلال أصحاب مقارنة الأديان في نتائجهم حول تطور العقيدة ، ومخالفة ذلك لما قرره القرآن في هذا الباب ، استعرض الخط الحركي للعقيدة الإسلامية في التاريخ البشري ، وحرص الشيطان على إخراج الناس من الإسلام إلى الجاهلية المتمثلة في الدينونة لغير الله ، يقول : " هذه الرؤية تفيدنا في تقدير موقف البشرية اليوم ، وفي تحديد طبيعة الدعوة الإسلامية كذلك ، إن البشرية اليوم – بجملتها – تزاول رجعية شاملة إلى الجاهلية التي أخرجها منها آخر رسول – محمد ﷺ – وهي جاهلية تتمثل في صور شتى :

* بعضها يتمثل في إلحادٍ بالله سبحانه ، وإنكارٍ لوجوده ، فهي جاهلية اعتقاد وتصور كجاهلية الشيوعيين .

* وبعضها يتمثل في اعتراف مشوه بوجود الله سبحانه ، وانحراف في الشعائر التعبدية ، وفي الدينونة والإتباع والطاعة ، كجاهلية الوثنيين من الهنود وغيرهم ، وكجاهلية اليهود والنصارى كذلك .

* وبعضها يتمثل في اعتراف صحيح بوجود الله سبحانه ، وأداء للشعائر التعبدية، مع انحراف خطير في تصور دلالة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، ومع شرك كامل في الدينونة والإتباع والطاعة ، وذلك كجاهلية من يسمون أنفسهم "مسلمين" ويظنون أنهم أسلموا واكتسبوا صفة الإسلام وحقوقه بمجرد نطقهم بالشهادتين وأدائهم للشعائر التعبدية مع سوء فهمهم لمعنى الشهادتين ، ومع استسلامهم ودينونتهم لغير الله من العبيد! وكلها جاهلية ، وكلها كفر بالله

كالأولين ، أو شرك بالله كالآخرين .

* إن رؤية واقع البشرية على هذا النحو الواضح ، تؤكد لنا أن البشرية اليوم بجملتها قد ارتدت إلى جاهلية شاملة ، وأنها تعاني رجعية نكدة إلى الجاهلية التي أنقذها منها الإسلام مرات متعددة ، كان آخرها الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ، وهذا بدوره يحدد طبيعة الدور الأساسي لطلائع البعث الإسلامي ، والمهمة الأساسية التي عليها أن تقوم بها للبشرية ، ونقطة البدء الحاسمة في هذه المهمة .

* إن على هذه الطلائع أن تبدأ في دعوة البشرية من جديد إلى الدخول في الإسلام كرة أخرى والخروج من هذه الجاهلية النكدة التي ارتدت إليها ، على أن تحدد للبشرية مدلول الإسلام الأساسي وهو الاعتقاد بألوهية الله وحده ، وتقديم الشعائر التعبدية لله وحده والدينونة والإتباع والطاعة والخضوع في أمور الحياة كلها لله وحده ، وأنه بغير هذه المدلولات كلها لا يتم الدخول في الإسلام ولا تحتسب للناس صفة المسلمين ،ولا تكون لهم تلك الحقوق التي يرتبها الإسلام لهم في أنفسهم وأموالهم كذلك ، وأنّ تخلف أحد هذه المدلولات كتخلفها جميعًا ، يخرج الناس من الإسلام إلى الجاهلية ، ويعمهم بالكفر أو بالشرك قطعًا .

* ولا بد أن يصل الأمر إلى ذلك المستوى من الحسم والوضوح في نفوس العصبة المسلمة التي تعاني مواجهة الجاهلية الشاملة في هذه الفترة النكدة من حياة البشرية، فإنه بدون هذا الحسم وهذا الوضوح تعجز طلائع البعث الإسلامي عن أداء واجبها في هذه الفترة الحرجة من تاريخ البشرية ، وتتأرجح أمام المجتمع الجاهلي ، وهي تحسبه مجتمعًا مسلمًا وتفقد تحديد أهدافها الحقيقة ، بفقدانها لتحديد نقطة البدء من حيث تقف البشرية فعلًا ، لا من حيث تزعم !! والمسافة بعيدة بين الزعم والواقع، بعيدة جدًا "[1].

والتأمل في النص السابق يجد :

أن سيدًا – رحمه الله – يعرض صورًا للجاهلية المعاصرة متمثلة بالإلحاد والوثنية واليهودية والنصرانية ، ويلحق بها صورة أخرى عند المسلمين وهي صورة الشرك

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٤٥- ١٩٤٦.

في الدينونة الكاملة والإتباع والطاعة ويجعلها كلها شركًا وكفرًا.

ويؤكد على أن الخروج من هذه الجاهليات السابقة كلها يكون بالعودة إلى الإسلام بمفهومه الصحيح الذي يشمل الاعتقاد والتعبد والدينونة والطاعة لله في كل أمور الحياة .

فإذا لم يحقق الناس الإسلام بهذا المفهوم فهم في الشرك ، وإذا حققوا بعضه وتركوا بعضه فهم أيضًا في الشرك مهما زعموا الإسلام .

ويقرر أنه يجب على الدعاة إلى الإسلام اليوم فهم القضية بهذا الشمول ، والانطلاق من هذا الوضوح حتى تكون الانطلاقة صحيحة .

وهذه أمور لا خلاف فيها ، والنص عام وليس فيه تكفير للأفراد بقدر ما فيه بيان الواقع ومدى مخالفته لما يجب أن يكون عليه المسلمون .

٥ـ النص الخامس :

تحدث سيد – رحمه الله – عن عظمة القرآن الكريم ، وتأثيره في النفوس البشرية ، وضرب مثالا لجيل الصحابة – رضوان الله عليهم – وكذا موقف الجاهلية القديمة في جهالتها وإعراضها عن القرآن وطلب الخارقة المادية غير القرآن ، مقارنًا ذلك بإعراض الجاهلية المعاصرة عن القرآن بسبب غرورها بما فتحه الله عليها في عالم المادة .

ثم أستعرض جهود اليهود والصليبيون في صرف الأمة عن القرآن فقال : " كما يحول بينهم وبين هذا القرآن كيد أربعة عشر قرنًا من الحقد اليهودي والصليبي ، الذي لم يكف لحظة واحدة عن حرب هذا الدين وكتابه القويم ، وعن محاولة إلهاء أهله عنه ، وإبعادهم عن توجيهه المباشر بعد ما علم اليهود والصليبيون من تجاربهم الطويلة أن لا طاقة لهم بأهل هذا الدين ما ظلوا عاكفين على هذا الكتاب ، عكوف الجيل الأول ، لا عكوف التغني بآياته وحياتهم كلها بعيدة عن توجيهاته !وهو كيد مطردٌ مصرٌّ لئيمٌ خبيثٌ ، ثمرته النهائية هذه الأوضاع التي يعيش فيها الناس الذي يسمون اليوم بالمسلمين وما هم بالمسلمين ما لم يحكموا في حياتهم شريعة هذا الدين " [1].

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٢٣.

والتأمل في النص يجد : أن كلام سيد في نهاية النص واضح ، فهو يقرر أن من لم يحكم شريعة هذا الدين في حياته كلها فليس بمسلم وإن زعم أنه مسلم .

٦ـ النص السادس :

في ظلال قوله تعالى :﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾[١] الآية . يقول سيد: " ولا نزال نجدنا في حاجة إلى تقرير من هم المشركون؟ إنهم الذين يشركون بالله أحدًا في خصائص الألوهية ، سواء في الاعتقاد بألوهية أحد مع الله ، أو بتقديم الشعائر التعبدية لأحد مع الله ، أو بقبول الحاكمية والشريعة من أحد مع الله ، ومن باب أولى من يَدَّعون لأنفسهم واحدة من هذه ، مهما تسموا بأسماء المسلمين ، فلنكن من أمر ديننا على يقين "[٢].

ثم يوضح – رحمه الله – حكم مجالسة المشركين وأهل الفسق والبدع ، وأنه لا يجوز إلا بقصد الموعظة والتذكير والدعوة ، ويورد أقوالاً لبعض السلف في المنع من مجالسة أهل البدع ثم يقول : " فهذا كله في صاحب البدعة وهو على دين الله ، وكله لا يبلغ مدى من يدعي خصائص الألوهية بمزاولته للحاكمية ، ومن يقره على هذا الإدعاء ، فليس هذا بدعة مبتدع ، ولكنه كفر كافر ، أو شرك مشرك ، مما لم يتعرض له السلف لأنه لم يكن في زمانهم ، فمنذ أن قام الإسلام في الأرض لم يبلغ من أحد أن يدعي هذه الدعوى ، وهو يزعم الإسلام ، ولم يقع شيء من ذلك إلا بعد الحملة الفرنسية التي خرج بعدها الناس من إطار الإسلام – إلا من عصم الله – وكذلك لم يعد في قول هؤلاء السلف ما ينطبق على هذا الذي كان ، فقد تجاوز كل ما تحدثوا عنه بمثل هذه الأحكام "[٣].

والمتأمل في النص يجد : أن سيدًا – رحمه الله – يقرر أنه يُحكَم على الإنسان بالشرك والكفر إذا أشرك مع الله أحدًا في خصائص ألوهيته إما :

– بالشرك في اعتقاد ألوهية غير الله .

– أو بتقديم الشعائر التعبدية لغير الله .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ٧٠ .

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١١٢٩ .

(٣) المصدر السابق ٢/ ١١٣٠ .

- أو بقبول الحاكمية والتشريع من غيره سبحانه .

- ومن باب أولى : من يدعي لنفسه واحدة من هذه .

وعند حديثه عن أحوال المسلمين في تحاكمهم لغير شرع الله ، يقرر كفر من :

- ادعى خصائص الألوهية بمزاولته للحاكمية .

- وكل من يقره على هذا الأمر.

وأن هذا النوع من الكفر أي كفر الحاكمية حدث بعد عصر السلف ، وشمل اليوم أكثر الأرض إلا من عصم الله .

٧ـ النص السابع :

في ظلال قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ ﴾[1]، يستعرض- سيد - دعوى اليهود أنهم شعب الله المختار وأنهم لن تسمهم النار إلا أيامًا معدودات وأنه لن يهتدي إلا من كان هودًا ، واتخاذ أحبارهم أربابًا من دون الله يحلون ويحرمون ، إلى غير ذلك من الأفعال التي تناقض الدعوى ، ويقارن ذلك بحال بعض المسلمين اليوم فيقول : " وما شأن هؤلاء اليهود إلا شأن من يزعمون الإسلام اليوم ، ويحسبون أنهم من أمة محمدﷺ وأن الله لا بد ناصرهم ، ومخرجهم لهم اليهود من أرضهم . بينما هم ينسلخون انسلاخًا كاملا من دين الله الذي هو منهجه للحياة ، فينبذونه من حياتهم ، ولا يتحاكمون إلى كتاب الله في أقضيتهم ولا في اقتصادهم ، ولا في اجتماعهم ولا في آدابهم ولا في تقاليدهم ، وكل ما لهم من الإسلام أسماء المسلمين ! وأنهم ولدوا في أرض كان المسلمون يسكنونها ذات يوم! ويقيمون فيها دين الله ، ويحكمون منهجه في الحياة .

والله يعجب رسولهﷺ من أمر أولئك اليهود الذين يزكون أنفسهم ، وأمر "المسلمين" المعاصرين أعجب ، وأشد إثارة للتعجب والعجب !!.. والله سبحانه يشهد على اليهود أنهم - إذ يزكون أنفسهم ويدعون أن الله راضٍ عنهم - يفترون

---

(١) سورة النساء ، الآيتان ٤٩ ، ٥٠ .

عليه الكذب ، ويشنع بفعلتهم هذه، ويوجه الأنظار إلى بشاعتها ، وما أرى أننا - الذين ندعي الإسلام لأننا نحمل أسماء المسلمين ، ونعيش في أرض كان يسكنها المسلمون ! بينما نحن لا نجعل الإسلام في شيء من منهجنا في الحياة ، ما أحسبنا ونحن ندعي الإسلام فنشوه الإسلام بصورتنا وواقعنا ، ونؤدي ضده شهادة منفرة منه ! ثم ونحن ندعي أن الله مختار لنا لأننا أمة محمد ﷺ بينما دين محمد ومنهجه مطرود من واقع حياتنا طردًا ، ما أحسبنا إلا في مثل هذا الموضع الذي يعجب الله - سبحانه - منه رسوله ﷺ ، ويدمغ أصحابه بافتراء الكذب على الله وارتكاب هذا الإثم المبين ، والعياذ بالله !.

إن دين الله منهج حياة ، وطاعة الله هي تحكيم هذا المنهج في الحياة ، والقرب من الله لا يكون إلا بطاعته فلننظر أين نحن من دينه ومنهجه ، ثم لننظر أين نحن من حال هؤلاء اليهود الذين يعجب الله منه حالهم ويدمغهم بإثم الافتراء عليه في تزكيتهم لأنفسهم ! فالقاعدة هي القاعدة والحال هو الحال، وليس لأحد عند الله نسب ولا صهر ولا محاباة !! " [(١)].

والمتأمل في النص يجد : أن - سيدًا - يتحدث عن واقع أمة على الإجمال ، ويستعرض حال فئة منها في مجتمعات مختلفة انسلخت من الدين ، ونبذته من حياتها وأصبحت تتحاكم في أقضيتها واقتصادها واجتماعها وآدابها وأخلاقها وتقاليدها إلى غير شريعة الله ، ولا شك أن من كان هذا حاله فدعواه الإسلام كدعوى اليهود أنهم شعب الله المختار سواء بسواء .

ويلفت سيد النظر في نهاية النص إلى أن مقصده تنبيه المسلمين اليوم إلى أن يعرفوا معنى الإسلام المتمثل في طاعة الله وتحكيم منهجه في الحياة كلها ، ويدعوهم إلى النظر في واقعهم وعرضه على دين الله بمفهومه الشامل لينظروا أين هم ، وماذا يعني انتماؤهم للإسلام ؟ .

٨ـ النص الثامن :

في ظلال قوله تعالى : ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٦٧٩ - ٦٨٠ .

أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ ﴾[١]، يقول سيد : " وهذا التعقيب هنا قاطع في اعتبار من يُصرون على التعامل الربوي – بعد تحريمه – من الكفار الآثمين ، الذين لا يحبهم الله ، وما من شك أن الذين يحلون ما حرم الله ينطبق عليهم وصف الكفر والإثم ، ولو قالوا بألسنتهم ألف مرة : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فالإسلام ليس كلمة باللسان ، إنما هو نظام حياة ومنهج عمل ، وإنكار جزء منه كإنكار الكل ، وليس في حرمة الربا شبهة ، وليس في اعتباره حلالا وإقامة الحياة على أساسه إلا الكفر والإثم والعياذ بالله "[٢].

والمتأمل في النص يجد: أن سيد قطب يستند إلى نص الآية الذي يعتبر المرابي المستحل للربا كافرًا آثمًا، فكلامه في المرابي المستحل ، الذي ينكر حرمته ويصر على التعامل به بدليل قوله : " يصرون على التعامل الربوي " و " يحلون ما حرم الله " و " إنكار جزء منه كإنكار الكل "

ولا شك أن كلام سيد هنا مواقف لرأي أهل السُّنَّة والجماعة الذين يكفرون من أنكر جزءًا من الإسلام أو استحل حرامًا أو حلل حرامًا !![٣].

٩ـ النص التاسع :

في ظلال قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾[٤]، يبين سيد – رحمه الله – أن المسلم الحق في كل زمان ومكان يرى في هذا التحذير الإلهي سوطًا يلهب الضمير ويوقظه ، ويفزعه أن يرى نفسه منتكسًا إلى الكفر بعد الإيمان ، وخاصة أن آيات القرآن وهدي النبي ﷺ باق وفيهما العصمة ، ويسوق بعض الأحاديث التي فيها النهي عن التلقي عن أهل الكتاب وغيرهم من الكفار وخاصة ما يتعلق بأمور العقيدة وما يرتبط بها من تشريعات.

ويقول معقبًا على ما سبق : " فأما التلقي عنهم – أي أهل الكتاب – في التصور

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٧٦ .
(٢) في ظلال القرآن ١/ ٣٢٨ .
(٣) ينظر : في ظلال القرآن في الميزان ، د/ صلاح الخالدي ص ٢٠٧ .
(٤) سورة آل عمران ، الآية ١٠٠ .

الإيماني ، وفي تفسير الوجود ، وغاية الوجود الإنساني ، وفي منهج الحياة وأنظمتها وشرائعها ، وفي منهج الأخلاق والسلوك أيضًا ، أما التلقي في شيء من هذا كله ، فهو الذي تغير وجه رسول الله – لأيسر منه [١]، وهو الذي حذر الله الأمة المسلمة عاقبته ، وهي الكفر الصراح ، هذا هو توجيه الله سبحانه ، وهذا هو هدي رسوله ﷺ فأما نحن الذين نزعم أننا مسلمون ، فأرانا نتلقى في صميم فهمنا لقرآننا وحديث نبينا ﷺ عن المستشرقين وتلامذة المستشرقين ! وأرانا نتلقى فلسفتنا وتصوراتنا للوجود والحياة من هؤلاء وهؤلاء ، ومن الفلاسفة والمفكرين : الإغريق والرومان والأوربيين والأمريكان ! وأرانا نتلقى نظام حياتنا وشرائعنا وقوانيننا من تلك المصادر المدخولة ! وأرانا نتلقى قواعد سلوكنا وآدابنا وأخلاقنا من ذلك المستنقع الآسن ، الذي انتهت إليه الحضارة المادية المجردة من روح الدين، أي دين ، ثم نزعم – والله – أننا مسلمون ! وهو زعم إثمه أثقل من إثم الكفر الصريح فنحن بهذا نشهد على الإسلام بالفشل والمسخ ، حيث لا يشهد عليه هذه الشهادة الآثمة من لا يزعمون – مثلنا – أنهم مسلمون !.." [٢].

والمتأمل في النص يجد : أن سيدًا – رحمه الله – يبين فيه الواقع السيئ ومظاهر السوء فيه ، من باب الدعوة إلى رفضه وتغييره ، ولا شك أن الذين يتلقون المناهج والنظم والتشريعات والتصورات من الكفار ، ويرضون بها لأنها أصلح وأحسن عندهم من مناهج وتشريعات وتصورات الإسلام فهؤلاء لا يشك أحد في كفرهم[٣]، وهذا ما يفهم من كلام سيد السابق .

١٠ ـ النص العاشر :

في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟

---

(١) يشير إلى حديث عمر – رضي الله عنه – عندما عرض صحفًا من التوراة على رسول الله ﷺ فتغير وجهه عليه الصلاة والسلام ، وقال : والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى – عليه السلام – ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم ، إنكم حظي من الأمم ، وأنا حظكم من النبيين " والحديث رواه أحمد ٣/ ٣٨٧ ، وحسنه الألباني والأرناؤوط ، انظر : مسند أحمد بتحقيق الأرناؤوط ٣٢/ ٣٤٩

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٤٤٠ وما قبلها .

(٣) ينظر في ذلك : تحكيم القوانين للشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ وفتاوى رسائل الشيخ محمد بن إبراهيم طبعة الحكومة ، مكة المكرمة، ط١، عام ١٣٩٩ هـ ١٢/ ٢٥٦ – ٢٦٠ ، وحكم الجاهلية ، لأحمد شاكر ، مكتبة السُّنَّة – القاهرة ،ط١عام ١٤١٢ هـ ، ص ٢٥ –٤٥ .

كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾[1].

يقول سيد : " والنص يتحدث عن فريق من القاعدين ، أولئك الذين يظلون قاعدين في دار الكفر لا يهاجرون ، تمسك بهم أموالهم ومصالحهم ، أو يمسك بهم ضعفهم عن مواجهة متاعب الهجرة وآلام الطريق – وهم قادرون لو أرادوا واعتزموا التضحية – أن يهاجروا ، والآية تصور مصيرهم عند الموت .

وهذا النص كان يواجهه حالة واقعة في مكة وغيرها – بعد هجرة الرسول ﷺ ، وقيام الدولة المسلمة – حيث بقي مسلمون لم يهاجروا إما بسبب أموالهم ومصالحهم، أو للعوز كالشيوخ والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ، وقد فتن بعضهم عن دينه فعلا ، واضطر بعضهم إلى إظهار الكفر تقية ، ومشاركة المشركين عبادتهم، وكانت هذه القضية جائزة لهم يوم أن لم تكن لهم دولة يهاجرون إليها – متى استطاعوا – فأما بعد قيام الدولة ، ووجود دار الإسلام ، فإن الخضوع للفتنة، أو الالتجاء للتقية ، وفي الوسع الهجرة والجهر بالإسلام والحياة في دار الإسلام ... أمر غير مقبول ...

ثم يستثني من لا حيلة لهم في البقاء في دار الكفر ، والتعرض للفتنة في الدين، والحرمان من الحياة في دار الإسلام من الشيوخ والضعفاء ، والنساء والأطفال ، فيعلقهم بالرجاء في عفو الله ومغفرته ورحمته ، بسبب عذرهم البيّن وعجزهم عن الفرار .

ويمضي هذا الحكم إلى آخر الزمان ، متجاوزًا تلك الحالة الخاصة .. يمضي حكمًا عامًا يلحق كل مسلم تناله الفتنة في دينه في أي أرض ، وتمسكه أمواله ومصالحه ، أو قراباته وصداقاته ، أو إشفاقه من آلام الهجرة ومتاعبها – متى كان هناك في الأرض في أي مكان – دار للإسلام يأمن فيها على دينه ، ويجهر فيها بعقيدته ، ويؤدي فيها عباداته ، ويحيا حياة إسلامية في ظل شريعة الله "[2].

*والمتأمل في النص يجد : أن – سيدًا– يتحدث عن القاعد وسط الكفار ، الذي

(١) سورة النساء ، الآية ٩٧ .
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٧٤٣ – ٧٤٥ بتصرف .

فتن عن دينه وارتد فعلًا مع وجود مكان يهاجر إليه لدينه ، ولا خلاف في كفر المرتد، أما من بقي معذورًا فإنه مستثنى من ذلك .

وهذا النص يفسر لنا كلام سيد في النص الآخر عن الهجرة بالدين حيث يقول: " ولقد ظل شرط الهجرة قائما حتى فتح مكة ، حين دانت أرض العرب للإسلام ولقيادته وانتظم الناس في مجتمعه ، فلا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد وعمل ، كما قالﷺ . غير أن ذلك إنما كان في جولة الإسلام الأولى التي حكم فيها الأرض ألفًا ومائتي عام تقريبًا ، ولم ينقطع فيها حكم شريعة الإسلام ، وقيام القيادة المسلمة على شريعة الله وسلطانه ، فأما اليوم وقد عادت الأرض إلى الجاهلية وارتفع حكم الله سبحانه عن حياة الناس في الأرض وعادت الحاكمية إلى الطاغوت في الأرض كلها ودخل الناس في عبادة العباد بعد إذ أخرجهم الإسلام منها .. الآن تبدأ جولة جديدة أخرى للإسلام ، كالجولة الأولى – تأخذ – في التنظيم كل أحكامها المرحلية، حتى تنتهي إلى إقامة دار إسلام وهجرة ، ثم تمتد ظلال الإسلام مرة أخرى – بإذن الله – فلا تعود هجرة ولكن جهاد وعمل كما حدث في الجولة الأولى "(١).

١١ـ النص الحادي عشر :

في ظلال قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(٢).

يقرر سيد – رحمه الله – أن قضية اتخاذ الله وحده وليًا ، بكل معاني كلمة (الولي) أي اتخاذه وحده ربًا ومولى معبودًا يدين له العبد بالعبودية ممثلة في الخضوع لحاكميته وحده ، ويدين له بالعبادة فيقدم له شعائرها وحدها ، واتخاذه وحده ناصرًا يستنصر به ، ويعتمد عليه ويتوجه إليه في الملمات ، هي قضية العقيدة في صميمها ، فإما إخلاص الولاء لله – بهذه المعاني كلها – فهو الإسلام ، وإما إشراك غيره معه في شيء منها فهو الشرك الذي لا يجتمع في قلب واحد هو والإسلام ! ..

قضية واحدة محددة ، لا تقبل لينا ولا تميعًا ، إما إفراد الله سبحانه بالتوجه والتلقي والطاعة والخضوع والعبادة والاستعانة ، والإقرار له وحده بالحاكمية في

(١) في ظلال القرآن ، ٣/ ١٥٦٠ .
(٢) سورة الأنعام ، الآية ١٤ .

كل أمر من هذه الأمور ، ورفض إشراك غيره معه فيها ، وولاء القلب والعمل في الشعيرة والشريعة له وحده بلا شريك إما هذا كله فهو الإسلام ، وإما إشراك أحد من عباده معه في شيء من هذا كله فهو الشرك ! الذي لا يجتمع في قلب واحدٍ مع الإسلام .

قد أمر رسول الله ﷺ أن يعلن هذا الاستنكار في وجه المشركين الذين كانوا يدعونه إلى الملاينة والمداهنة ليجعل لآلهتهم مكانًا في دينه مقابل أن يدخلوا معه في هذا الدين ، وليترك لهم بعض خصائص الألوهية يزاولونها إبقاءً على مكانتهم وكبريائهم ومصالحهم ، وأولها تقاليد التحريم والتحليل في مقابل أن يكفوا عن معارضته ويجعلوه رئيسًا فيهم ، ويجمعوا له من مالهم ، ويزوجوه أجمل بناتهم وفي وجه هذه المحاولة المزدوجة أمر رسول الله ﷺ أن يقذف بهذا الاستنكار العنيف ، وبهذا الحسم الصريح ، وبهذا التقرير الذي لا يدع مجالا للتمييع [١].

فها هو ذا رسول الله ﷺ يؤمر من ربه هذا الأمر، ثم هاهو ذا يواجه المشركين الذين يتخذون من دون الله أولياء يجعلون لهم بعض خصائص الألوهية مع الله ، ويدعونه أن يقرهم على هذا الذي هم فيه ليدخلوا هم فيما جاءهم به ! كأن ذلك يمكن أن يكون !! وكأنه يمكن أن يجتمع الإسلام والشرك في قلب واحد على هذا النحو الذي كانوا يتصورونه ، والذي لا يزال يتصوره ناسٌ في هذا الزمان ، من أنه يمكن أن يكون الإنسان مسلما لله ، بينما هو يتلقى من غير الله في شؤون الحياة، وبينما هو يخضع لغير الله ويستنصر بغير الله ، ويتولى غيرا لله!.. هاهو ذا يواجه المشركين ليبين لهم مفرق الطريق بين دينه ودينهم، بين توحيده وشركهم ، بين إسلامه وجاهليتهم.. انه لا موضع للقاء ولا المصالحة ! " [٢].

ثم يعود سيد ليعرض حقيقة التوحيد والولاء والمفاصلة باعتبارها قضية العقيدة الكبرى ، وينبه الدعاة اليوم إلى أهمية وضوح هذه القضية لديهم فيقول :" قضية الولاء والتوحيد والمفاصلة هي قضية هذه العقيدة الكبرى وإن العصبة المؤمنة اليوم لخليقة بأن تقف أمام هذا الدرس الرباني وقفة طويلة،وهي تواجه

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٥٤ .
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٥٥-١٠٥٦.

الجاهلية الشاملة في الأرض كما كانت تواجهها العصبة الأولى لتحدد على ضوئها موقفها، وترسم طريقها على هداها ..

لقد استدار الزمان كهيئة يوم جاء هذا الدين إلى البشرية ، وعادت البشرية إلى مثل الموقف الذي كانت فيه يوم تنزل هذا القرآن على رسول الله ﷺ ، ويوم جاء القرآن مبنيًا على قاعدته الكبرى " شهادة أن لا إله إلا الله " .. بمعناها الذي عبر عنه ربعي بن عامر[1] قائد المسلمين إلى قائد الفرس وهو يسأله : " ما الذي جاء بكم ؟ " فيقول : " الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .. وهو يعلم أنهم لا يعبدون كسرى بوصفه إلهًا خالقًا للكون ، ولا يقدمون له شعائر العبادة المعروفة ، ولكنهم إنما يتلقون منه الشرائع ، فيعبدونه بهذا المعنى الذي يناقض الإسلام وينفيه ، فأخبره أن الله ابتعثهم ليخرجوا الناس من الأنظمة والأوضاع التي يعبد فيها العباد ، ويقرون لهم بخصائص الألوهية – وهي الحاكمية والتشريع والخضوع لهذه الحاكمية والطاعة لهذا التشريع – (وهي الأديان).. إلى عبادة الله وحده وإلى عدل الإسلام .

لقد استدار الزمان كهيئة يوم جاء هذا الدين إلى البشرية بلا إله إلا الله ، فقد ارتدت البشرية إلى عبادة العباد ، وإلى جوار الأديان ، ونكصت عن لا إله إلا الله ، وإن ظل فريق منها يردد على المآذن (لا إله إلا الله) دون أن يدرك مدلولها ، ودون أن يعني هذا المدلول وهو يرددها ، ودون أن يرفض شرعية " الحاكمية " التي يدعيها العباد لأنفسهم – وهي مرادف الألوهية – سواء ادعوها كأفراد ، أوكتشكيلات تشريعية ، أو كشعوب ، فالأفراد كالتشكيلات كالشعوب ليست آلهة ، فليس لها إذن حق الحاكمية ، إلا أن البشرية عادت إلى الجاهلية ، وارتدت عن لا إله إلا الله ، فأعطت لهؤلاء العباد خصائص الألوهية ،ولم تعد توحد الله ، وتخلص له الولاء .

البشرية بجملتها ، بما فيها أولئك الذين يرددون على المآذن في مشارق الأرض ومغاربها كلمات (لا إله إلا الله) بلا مدلول ولا واقع ، وهؤلاء أثقل إثمًا وأشد

---

(١) هو: ربعي بن عامر ، أحد قادة الفتوحات في العراق ، له ذكر في معركة نهاوند ، ولي إمارة طبرستان ، انظر : الإصابة ،لابن حجر ، ٣/ ٢٥٣ .

عذابًا يوم القيامة ، لأنهم ارتدوا إلى عبادة العباد – من بعد ما تبين لهم الهدى – ومن بعد أن كانوا في دين الله .

فما أحوج العصبة المسلمة اليوم أن تقف طويلًا أما هذه الآيات البينات ، ما أحوجها أن تقف أمام آية الولاء ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[1] .

ذلك لتعلم أن اتخاذ غير الله وليًا – بكل معاني "الولي" وهي : الخضوع والطاعة والاستنصار والاستعانة ، يتعارض مع الإسلام لأنه هو الشرك الذي جاء الإسلام ليخرج منه الناس ، ولتعلم أن أول ما يتمثل فيه الولاء لغير الله هو تقبل حاكمية غير الله في الضمير أو في الحياة ، الأمر الذي تزاوله البشرية كلها بدون استثناء ، ولتعلم أنها تستهدف اليوم إخراج الناس جميعًا من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ،وأنها تواجه جاهلية كالتي واجهها رسول الله ﷺ والجماعة المسلمة الأولى "[2].

والمتأمل في النص يجد : أن كلام سيد يدور حول ردة البشرية إلى الجاهلية متمثلة في حاكمية غير الله الذي تزاوله البشرية كلها اليوم ، وأنه لا ينفي عن البشرية اليوم وصف الجاهلية في هذا الباب وجود بعض شعائر الإسلام في المجتمعات المسلمة، لأن بعض هذه الشعائر تقام دون أن يدرك الناس مدلولها ، أو دون أن يقصدوه ، مثل ترديد " لا إله إلا الله " والتي تعني "رفض حاكمية غير الله ومنهجه في الحياة" بينما المجتمعات تحكم بغير شرع الله ، وتقبل ولا ترفض ، فمن كان ذلك حاله من المجتمعات فهو في ردة عن معنى لا إله إلا الله ، وعن التوحيد الذي جاء به رسول الله ﷺ .

١٢ـ النص الثاني عشر:

في تعليقه على الآيات التي تتحدث عن غزوة بدر في سورة الأنفال وفي ظلال قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾[3] يقول سيد: " فإن معرفتهم – أي مشركو العرب – بالله سبحانه لم تكن قليلة ولا سطحية ولا غامضة ، كما

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٤ .
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٥٧- ١٠٥٨ بتصرف يسير .
(٣) سورة الأنفال، الآية ١٩ .

يتصور الناس اليوم من خلال تأثرهم ببعض التعميمات التاريخية ولم يكن شرك العرب متمثلا في إنكار الله - سبحانه - ولا في عدم معرفتهم الحقيقة ، إنما كان يتمثل أكثر ما يتمثل في عدم إخلاصهم العبودية له ، وذلك بتلقي منهج حياتهم وشرائعهم من غيره ، وهو ما لم يكن متفقًا مع إقرارهم بألوهية الله [1] ، ومعرفتهم لحقيقته .

ثم يذكر نصوصًا من السيرة تدل على معرفة المشركين بالله وعدم إنكارهم له أو لربوبيته ، كقول الأخنس بن شريق لبني زهرة وهم مشركون: " قد نجى الله لكم أموالكم.. " ومثل استفتاح أبي جهل نفسه في بدر بقوله :" اللهم اقطعنا للرحم وأتانا بما لا يعرف فأحنه الغداة " ،وكقوله لحكيم بن حزام : " كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد " .

ويقرر أنهم كانوا يستحضرون حقيقة الألوهية - أي الربوبية - وإنما كان شركهم الحقيقي يتمثل في تلقي منهج حياتهم وشرائعهم من غير الله ، الذي يعرفونه ويعترفون به على هذا النحو ، الأمر الذي يشاركهم فيه اليوم أقوام يظنون أنهم مسلمون - على دين محمد - كما كان المشركون يظنون أنهم مهتدون على دين أبيهم إبراهيم !..

أما تلك الأصنام التي عبدوها فما كان لاعتقادهم بألوهية لها كألوهية الله - سبحانه- فقد صرح القرآن الكريم بحقيقة تصورهم الاعتقادي فيها ، وبسبب تقديمهم الشعائر لها في قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [2]، فهذا كان مبلغ تصورهم لها ، مجرد شفعاء عند الله ، وما كان شركهم الحقيقي من هذه الجهة ، ولا كان إسلام من أسلم منهم متمثلًا في مجرد التخلي عن الاستشفاع بهذه الأصنام ، وإلا فإن الحنفاء ، الذين اعتزلوا عبادة الأصنام هذه وقدموا الشعائر لله وحده ما اعتبروا مسلمين [3]، إنما تمثل الإسلام في الاعتقاد والشعائر وإفراد الله سبحانه بالحاكمية ، والذين لا

(١) يطلق سيد لفظ الألوهية ويقصد به معنى شاملا يشمل الربوبية والألوهية عند أهل السُّنَّة وسيأتي بيان ذلك في الباب القادم إن شاء الله .

(٢) سورة الزمر ، الآية ٣ .

(٣) كلام سيد هذا عن الحنفاء فيه نظر .

يفردون الله سبحانه بالحاكمية – في أي زمان ومكان – هم مشركون ، لا يخرجهم من هذا الشرك أن يكون اعتقادهم أن لا إله إلا الله – مجرد اعتقاد – ولا أن يقدموا الشعائر لله وحده ، فإلى هنا يكونون كالحنفاء الذين لم يعتبرهم أحد مسلمين – إنما يعتبر الناس مسلمين حين يتمون حلقات السلسلة ، أي حين يضمون إلى الاعتقاد والشعائر إفراد الله سبحانه بالحاكمية ورفضهم الاعتراف بشرعية حكم أو قانون أو وضع أو قيمة أو تقليد لم يصدر عن الله وحده ، وهذا وحده هو الإسلام ، لأنه وحده مدلول شهادة : أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، كما عرف هذا المدلول في الاعتقاد الإسلامي وفي الواقع الإسلامي سواء! ثم أن يجتمع هؤلاء الذين يشهدون أن لا إله إلا الله على هذا النحو وبهذا المدلول في تجمع حركي بقيادة مسلمة وينسلخوا من التجمع الجاهلي وقيادته الجاهلية .

وهذا ما ينبغي أن يتبينه الذين يريدون أن يكونوا " مسلمين " فلا تخدعهم عن حقيقة ما هم فيه خدعة أنهم مسلمون اعتقادًا وتعبدًا ، فإن هذا وحده لا يجعل الناس " مسلمين " ما لم يتحقق لهم أنهم يفردون الله – سبحانه – بالحاكمية ويرفضون حاكمية العبيد ، ويخلعون ولاءهم للمجتمع الجاهلي ولقيادته الجاهلية .

إن كثيرًا من المخلصين الطيبين تخدعهم هذه الخدعة ، وهم يريدون لأنفسهم الإسلام ولكنهم يخدعون عنه ، فأولى لهم أن يستيقنوا صورة الإسلام الحقيقية والوحيدة ، وأن يعرفوا أن المشركين من العرب الذين يحملون اسم " المشركين" لم يكونوا يختلفون عنهم في شيء ! فلقد كانوا يعرفون الله بحقيقته – كما تبين – ويقدمون له شفعاء من الأصنام وكان شركهم الأساسي يتمثل – لا في الاعتقاد– ولكن في الحاكمية !...

إن العصبة المسلمة التي تجاهد لإعادة نشأة هذا الدين في الأرض في عالم الواقع يجب أن تستيقن هذه الحقيقة بوضوح وعمق ، ويجب ألا تتلجلج فيها أي تلجلج ، ويجب أن تعرف الناس بها تعريفًا صريحًا واضحًا جازمًا ، فهذه هي نقطة البدء والانطلاق ، فإذا انحرفت الحركة عنها – منذ البدء – أدنى انحراف ضلت طريقها كله ، وبنت على غير أساس مهما توافر لها من الإخلاص بعد ذلك والصبر

والتصميم على المضي في الطريق "[١].

١٣ـ النص الثالث عشر:

في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾[٢].

يقول سيد : " وتلك هي التعبئة الروحية إلى جوار التعبئة النظامية ، وهما ضروريتان للأفراد والجماعات ، وبخاصة قبيل المعارك والمشقات ، ولقد يستهين قوم بهذا التعبئة الروحية ، ولكن التجارب ما تزال إلى هذه اللحظة تنبئ بأن العقيدة هي السلاح الأول في المعركة ، وأن الأداة الحربية في يد الجندي الخائر العقيدة لا تساوي شيئًا في ساعة الشدة ، وهذه التجربة التي يعرضها الله على العصبة المؤمنة ليكون لها فيها أسوة ، ليست خاصة ببني إسرائيل ، فهي تجربة إيمانية خالصة ، وقد يجد المؤمنون أنفسهم ذات يوم مطاردين في المجتمع الجاهلي ، وقد عمت الفتنة ، وتجبر الطاغوت ، وفسد الناس ، وأنتنت البيئة ، وكذلك كان الحال على عهد فرعون في هذه الفترة ،، وهنا يرشدهم الله إلى أمور :

* اعتزال الجاهلية بنتنها وفسادها وشرها – ما أمكن في ذلك – وتجمع العصبة المؤمنة الخيرة النظيفة على نفسها ، لتطهرها ، وتزكيها، وتدربها وتنظمها حتى يأتي وعد الله لها،

* اعتزال معابد الجاهلية ، واتخاذ بيوت العصبة المسلمة مساجد ، تحس فيها بالانعزال عن المجتمع الجاهلي ، وتزاول فيها عبادتها لربها،على نهج صحيح ، وتزاول بالعبادة ذاتها نوعًا من التنظيم في جو العبادة الطهور "[٣].

هذا النص استنبط منه البعض أن سيدًا – رحمه الله – يسمي المساجد اليوم معابد جاهلية ويدعوا إلى اعتزالها ! وبالتالي فهذا دليل على أنه يقول بكفر المجتمعات الإسلامية وأفرادها[٤].

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٩١- ١٤٩٣ بتصرف يسير .

(٢) سورة يونس ، الآية ٨٧ .

(٣) في ظلال القرآن ، ٣/ ١٨١٦ .

(٤) ينظر في ذلك : أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب وفكره . د/ ربيع المدخلي ، ص ٧٩ .

*والذي يتأمل النص السابق يجد : أن سيدًا - رحمه الله - لم يطلق قوله ويلقيه على عواهنه كما فهم البعض ، بل بيّن- رحمه الله - المناسبة وهي قوله : " وقد يجد المسلمون أنفسهم ذات يوم مطاردين في المجتمع الجاهلي ، وقد عمت الفتنة ، وتجبر الطاغوت ، وفسد الناس ، وأنتنت البيئة " وهي الحالة التي كانت تعيشها العصبة المؤمنة من قوم موسى - عليه السلام - على عهد فرعون ، ففي هذه الحالة يرشدهم الله إلى اعتزال معابد الجاهلية ، ولا شك أن الأمر إذا وصل بالمسلم إلى الحالة التي ذكرها سيد من ظهور الفتنة ، واضطهاد من يغشون المساجد ، وتعقبهم في أنفسهم بالاعتقال والحبس ، وفي أموالهم بالمصادرة ، وأعمالهم بالفصل ، وأن يكون المجتمع قد نتن ، وفسدت بيئته ، مع تجبر الطاغوت كما كان الأمر في عهد فرعون ، فهنا لا تثريب على الفئة المضطهدة أن تعتزل المساجد وتصلي في البيوت .

ويبقى أمر آخر ، وهو هل يصح أن يطلق على المساجد أنها معابد جاهلية ؟

والجواب : أنه يمكن أن توصف بعض المساجد بأنها معابد جاهلية ، كما هو الحال بالنسبة لمعابد القاديانية [1] التي تزعم أن (الميرزا غلام أحمد) نبي مطبوع بطابع سيدنا محمد وتقام فيها العبادات المحرفة .

وأيضًا يمكن أن يقبل وصف بعض المساجد بأنها معابد الجاهلية في الحالات التي تُمارس فيها أعمال جاهلية ، كالصلاة إلى القبور الموجودة فيها والطواف حولها والتمسح بها ودعاء الأموات ونحو ذلك .

وكذلك أيضًا المساجد التي يتخذها بعض الحكام أداة لأعمال الجاهلية كالتصفيق له والهتاف له ولجاهليته .

وهذا مثل وصف الله مسجد المنافقين بمسجد الضرار في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ

(١) القاديانية : حركة نشأت عام ١٩٠٠م ،بدعم من الاستعمار الانجليزي في الهند ، على يد ميرزا غلام أحمد ، أحد عملاء الاستعمار الانجليزي، الذي ادعى أنه المهدي ، ثم زعم أن روح المسيح حلت فيه ، ثم ادعى النبوة ونسخ الجهاد ، ثم ادعى الألوهية ، انظر : الموسوعة الميسرة ، ص٣٧٨ .

يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[1]، حيث نهى الله النبي ﷺ أن يصلي فيه لأنه مسجد للضرار، كما أن الله تعالى قد وصف صلاة الجاهلية بقوله: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[2]" [3].

ولعل سيد يقصد اعتزال المساجد عندما تكون العبادة فيها على منهج غير صحيح كما تشير إليه عبارته " وتزاول فيها - أي البيوت - عبادتها على منهج صحيح " [4].

فإذا كان حال بعض المساجد ما ذكر فهي من معابد الجاهلية، أما إطلاق الوصف على المساجد عمومًا فلا يصح، وإن صح اعتزال الصلاة فيها لسبب الخوف أو نحوه والله أعلم.

١٤ـ النص الرابع عشر :

في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾[5]، يقرر سيد - رحمه الله - أن هذا الدين منهج حركي، لا يفقهه إلا من يتحرك به، وبالتالي فالفقه الإسلامي هو وليد للحركة بالإسلام، وليس العكس، قد وجدت الدينونة لله وحدة، ووجد المجتمع الذي قرر أن تكون الدينونة فيه لله وحده، والذي نبذ شرائع الجاهلية وعاداتها وتقاليدها، والذي رفض أن تكون شرائع البشر هي التي تحكم أي جانب من جوانب الحياة فيه، ثم أخذ هذا المجتمع يزاول الحياة فعلا وفق المبادئ الكلية في الشريعة - إلى جانب الأحكام الفرعية التي وردت في أصل الشريعة، وفي أثناء مزاولته للحياة الفعلية في ظل الدينونة لله وحده واستحياء شريعته وحده تحقيقًا لهذه الدينونة، جدت له أقضية فرعية بتجدد

---

(١) سورة التوبة، الآيات ١٠٧، ١٠٨.
(٢) سورة الأنفال، الآية ٣٥.
(٣) سيد قطب بين العاطفة والموضوعية، لسالم البهنساوي، ص ٧٤ وما بعدها. بتصرف.
(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١٨١٦.
(٥) سورة التوبة، الآية ١٢٢.

الحالات الواقعية في حياته ، وهنا فقط بدأ استنباط الأحكام الفقهية ، وبدأ نمو الفقه الإسلامي ، فالحركة بهذا الدين هي التي أنشأت ذلك الفقه ، والحركة بهذا الدين هي التي حققت نموه ، ولم يكن قط فقهًا مستنبطًا من الأوراق الباردة، بعيدًا عن حرارة الحياة الواقعة ! من أجل ذلك كان الفقهاء متفقهين في الدين ، يجيء فقههم للدين من تحركهم به ، ومن تحركه مع الحياة الواقعة لمجتمع مسلم حي، يعيش بهذا الدين ، ويجاهد في سبيله ، ويتعامل بهذا الفقه الناشئ بسبب حركة الحياة الواقعة .

ثم يقول : " فأما اليوم .. "فماذا " ؟ أين هو المجتمع المسلم الذي قرر أن تكون دينونته لله وحده والذي رفض بالفعل الدينونة لأحد من العبيد ، والذي قرر أن تكون شريعة الله شريعته ، والذي رفض بالفعل شرعية أي تشريع لا يجيء من هذا المصدر الشرعي الوحيد ؟ لا أحد يملك أن يزعم أن هذا المجتمع المسلم قائم موجود ! ومن ثم لا يتجه مسلم يعرف الإسلام ، ويفقه منهجه وتاريخه ، إلى محاولة تنمية الفقه الإسلامي أو " تجديده " أو " تطويره " في ظل مجتمعات لا تعترف ابتداء بأن هذا الفقه هو شريعتها الوحيدة التي بها تعيش ، ولكن المسلم الجاد يتجه ابتداء لتحقيق الدينونة لله وحده ، وتقرير مبدأ أن لا حاكمية إلا لله ، وأن لا تشريع ولا تقنين إلا مستمدًا من شريعته وحدها تحقيقًا لتلك الدينونة " [1].

ويؤكد أيضًا في مقدمة تفسير سورة الحجر ، على أن سمة هذا القرآن هي الواقعية والحركية ، وأنه لا بد من أن استصحاب الأحوال والملابسات والظروف والحاجات والمقتضيات الواقعية والعملية التي صاحبت نزول النص القرآني ، .. وأنه لا يرى هذه الرؤية اليوم إلا الذين يتحركون فعلًا بهذا الدين في مواجهة الجاهلية الحاضرة، كما كانت الجماعة المسلمة الأولى تواجهه الجاهلية في عصرها ، وبالتالي فنحن اليوم في شبه الموقف لا في مثله وهذا الاختلاف يقتضي اجتهادًا " جديدًا في " فقه الحركة " يوائم بين السوابق التاريخية للحركة الإسلامية الأولى ، وبين طبيعة الفترة الحاضرة ومقتضياتها المتغيرة قليلًا أو كثيرًا ، هذا النوع من الفقه هو الذي تحتاج إليه الحركة الإسلامي الوليدة أما الفقه الخاص بأنظمة الدولة ،

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٣٤ - ١٧٣٦ بتصرف .

وشرائع المجتمع المنظم والمستقر، فهذا ليس أوانه، إنه ليس على وجه الأرض اليوم دولة مسلمة ولا مجتمع مسلم قاعدة التعامل فيه هي شريعة الله والفقه الإسلامي!! هذا النوع من الفقه يأتي في حينه، وتفصل أحكامه على قدر المجتمع المسلم حين يوجد، ويواجه الظروف الواقعية التي تكون محيطة بذلك المجتمع يومذاك، إن الفقه الإسلامي لا ينشأ في فراغ، ولا تستنبت بذوره في الهواء!"[1].

كما يقرر - رحمه الله - أن نقطة المتاهة تبدأ من افتراض أن المجتمعات القائمة اليوم هي المجتمعات الإسلامية، لأنها بتركيبها العضوي الحاضر ،تعتبر بالقياس إلى طبيعة النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية فراغًا لا يمكن أن تطبق فيها أحكام النظام الإسلامي، لأنها قائمة أصلًا على قيم وموازين واعتبارات وأخلاق وتصورات مختلفة تمامًا عن التركيب العضوي للمجتمع المسلم ،... ثم ضرب أمثلة لكثير من القضايا التي تبحث اليوم في ظل غياب الحكم الإسلامي كقضايا الإمارة واختيار الإمام وأهل الشورى، والبنوك وشركات التأمين، وتحديد النسل وغيرها من القضايا التي نتجت عن غياب حاكمية الشريعة واستبدالها بالقوانين الجاهلية، وبالتالي لا يمكن تطبيق قواعد النظام الإسلامي وأحكامه على مجتمعات السيادة فيها لقوانين الجاهلية.

ويرى أنه لا بد من إيجاد المجتمع المسلم أولًا بتركيبه العضوي الطبيعي، ليكون وسطا صالحا لتطبيق الفقه الإسلامي، وساعتها قد يحتاج ذلك المجتمع الإسلامي - إلى البنوك وشركات التأمين وتحديد النسل وغيرها وقد لا يحتاج.

ومن هنا تظهر محنة هؤلاء الباحثين عندما يتصورون أن هذا الواقع الجاهلي هو الأصل الذي يجب على دين الله أن يطابق نفسه عليه! ولكن الأمر غير ذلك تمامًا، إن دين الله هو الأصل الذي يجب على البشرية أن تطابق نفسها عليه، وأن تحور من واقعها الجاهلي، وتغير حتى تتم هذه المطابقة، وهذا التحور يكون بتحقيق ألوهية الله في الأرض، وتحرير الناس من العبودية للطاغوت، بتحكم شريعة الله وحدها في حياتهم ...

وقد آن للإسلام أن يستعلي في نفوس دعاته، فلا يجعلوه مجرد خادم للأوضاع

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٢١٢١- ٢١٢٢ بتصرف يسير، وينظر أيضًا ٤/ ٢٠٠٧ - .

الجاهلية ، والمجتمعات الجاهلية ، والحاجات الجاهلية ، وأن يقولوا للناس - وللذين يستفتونهم بوجه خاص - تعالوا أنتم أولًا إلى الإسلام ، وأعلنوا خضوعكم سلفًا لأحكامه ، أو بعبارة أخرى تعالوا أنتم أولًا فادخلوا في دين الله ، وأعلنوا عبوديتكم لله وحده ، وأشهدوا أن لا إله إلا الله بمدلولها الذي لا يقوم الإيمان والإسلام إلا به ، وهو إفراد الله بألوهيته في الأرض كإفراده بالألوهية في السماء ، وتقرير ربوبيته - أي حاكميته وسلطانه - وحده في حياة الناس بجملتها، وتنحية ربوبية العباد للعباد ، بتنحية حاكمية العباد للعباد ، وتشريع العباد للعباد ، وحين يستجيب الناس - أو الجماعة منهم - لهذا القول ، فإن المجتمع المسلم يكون قد بدأ أولى خطواته في الوجود، وهذا المجتمع يكون حينئذ هو الوسط الواقعي الحي الذي ينشأ فيه الفقه الإسلامي الحي وينمو، لمواجهة حاجات ذلك المجتمع المستسلم لشريعة الله فعلًا .

" وهذا لا يعني - بحال - أن الأحكام الشرعية المنصوص عليها في الكتاب والسُّنَّة ليست قائمة الآن فعلا من الوجهة الشرعية ، ولكنه يعني فقط أن المجتمع الذي شرعت هذه الأحكام له، والذي لا تطبق هذه الأحكام إلا فيه - بل الذي لا تعيش هذه الأحكام إلا به - ليس قائما الآن فعلا ، ومن ثم يصبح وجودها الفعلي معلقًا بقيام ذلك المجتمع .

وإدراك هذا الأمر بهذه الطريقة هو نقطة البدء في العمل الحقيقي البنّاء لإعادة هذا الدين إلى الوجود الفعلي ، بعد أن انقطع هذا الوجود الحقيقي للإسلام منذ أن حلت شرائع البشر محل شريعة الله في خلال القرنين الأخيرين ، وخلا وجه الأرض من الوجود الحقيقي للإسلام وإن بقيت المآذن والمساجد ، والأدعية والشعائر، تخدر مشاعر الباقين على الولاء العاطفي الغامض لهذا الدين ، وتوهمهم أنه لا يزال بخير ، وهو يمحى من الوجود محوًا " [1].

والملاحظ في هذه النصوص التي نقلتها على طولها : أن سيدًا - رحمه الله - يبيّن وضع المجتمع المسلم الأول الذي نشأ على عهد رسول الله ﷺ ، والذي كانت الدينونة فيه لله وحده في جميع شؤون الحياة ، وفي ظل مزاولة المجتمع للحياة الفعلية في ظل

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٠٦- ٢٠١٣ بتصرف .

الدينونة لله وحده نمى الفقه الإسلامي واستنبط الفقهاء الأحكام لما استجد في حياتهم الواقعية من خلال حركتهم بهذا الدين .

ويقارن بين ذلك المجتمع وبين المجتمعات الإسلامية اليوم في هذا الأمر ! ويخلص من خلال استقراء وضع الأنظمة والمجتمعات القائمة اليوم إلى أنه لا يوجد فيها دولة مسلمة ولا مجتمع مسلم قرر أن تكون دينونته لله وحده في كل شئون حياته وأن تكون قاعدة التعامل فيه هي شريعة الله والفقه الإسلامي ، ويرفض فعلا أي تشريع لا يجيء من شريعة الله سبحانه ، بسبب علمانية هذه المجتمعات وقيام الأنظمة التي تحكمها على إقصاء شريعة الله كليًا أو جزئيًا وكلاهما سواءٌ .

وإذًا : فمحاولة تنمية الفقه الإسلامي وتطويره في ظل مجتمعات لا تعترف ابتداءً بأن هذا الفقه هو شريعتها الوحيدة ، يتنافى مع واقعية هذا الدين ، فكثير من الاختلالات في الواقع سببها غياب الحكم الإسلامي واستبداله بقوانين الجاهلية. وبالتالي لا يمكن تطبيق قواعد النظام الإسلامي وأحكامه على مجتمعات السيادة فيها لقوانين الجاهلية .

ومن هنا يرى سيد – رحمه الله – أن الواجب على الدعاة أن يستعلوا بالإسلام ، وأن يجهروا للناس بحقيقة الأوضاع القائمة اليوم وبعدها عن شرع الله وأن يدعوا المجتمعات إلى العودة إلى الدين وتحكيم شريعة الله وحدها في الحياة ، فهذا هو بداية الطريق للعمل الجاد للدين .

ويقرر أن هذا الكلام لا يعني أن الأحكام الشرعية المنصوص عليها في الكتاب والسُّنَّة ليست قائمة الآن فعلًا من الوجهة الشرعية ، ولكن يعني فقط أن المجتمع الذي شرعت هذه الأحكام له والذي لا تعيش هذه الأحكام إلا به – ليس قائما الآن فعلًا ، بسبب إقصاء حاكمية الشريعة خلال القرنين الماضيين من الوجود في المجتمعات الإسلامية أو أغلبها .

* وكلامه هنا عن عدم وجود الدولة المسلمة اليوم هو نفس كلامه في" المعالم " عن عدم وجود الأمة المسلمة اليوم حيث يقول في مقدمة المعالم : " والأمة المسلمة جماعة من البشر تنبثق حياتهم وتصوراتهم وأوضاعهم وأنظمتهم وقيمهم

وموازينهم كلها من المنهج الإسلامي ، وهذه الأمة بهذه المواصفات قد انقطع وجودها منذ انقطاع الحكم بشريعة الله من فوق ظهر الأرض جميعًا " [١].

فانقطاع وجود الأمة المسلمة عند سيد – من خلال كلامه في مواضع متفرقة– يعني : سيادة التشريعات العلمانية " اللادينية " على كافة مرافق البلاد الإسلامية، كليًا أو جزئيًا بحيث يمكن القطع بأنه لا يوجد مجتمع الدينونة فيه لشريعة الله وحدها فقط في كل جوانب الحياة ، بحيث تنبثق حياة المجتمع وتصوراته وأوضاعه وأنظمته وقيمه وموازينه من المنهج الإسلامي وحده .

والقول بعدم وجود الأمة المسلمة بهذا المفهوم لا يعني أن أفراد الأمة المسلمة كفار كما فهم البعض من خلال كلام سيد السابق [٢].

لأن كلام سيد عن الأمة كشخصية معنوية متمثلة في الدولة ومؤسساتها الدستورية من تشريعية وتنفيذية وقضائية ، ولا يتعلق هذا الحكم بالأفراد .

ويوضح سيد نفسه هذا الأمر عندما سئل عن معنى قوله بانقطاع وجود الأمة المسلمة منذ مدة فقال : " لا بد من تفسير مدلول كلمة " الأمة المسلمة " التي أعنيها ، فالأمة المسلمة هي التي تحكم في كل جوانب حياتها ، الفردية والعامة ، والسياسية والاجتماعية ، والاقتصادية بشريعة الله ومنهجه ، وهي بهذا الوصف غير قائمة الآن ، وإن كان هذا لا يمنع من وجود الأفراد المسلمين ، لأنه فيما يختص بالفرد الاحتكام يكون إلى عقيدته وخلقه ، وفيما يختص بالأمة ، الاحتكام إلى نظام حياتها كلها " [٣].

فمن أعلن الإسلام باللسان ، ولم يظهر ما يوجب كفره ، لا نستطيع الحكم عليه بالكفر ، يقول سيد: " فالله أمر المسلمين إذا خرجوا غزاة ألا يبدأوا بقتال أحد أو قتله حتى يتبينوا، وأن يكتفوا بظاهر الإسلام في كلمة اللسان ، إذ لا دليل هنا

---

(١) معالم في الطريق ، سيد قطب ص ٨ .

(٢) انظر : مجلة الشهاب اللبنانية العدد ٢١ ، صفر عام ١٣٩٣هـ . مقال كتبه: عبد الله أبو عزة ، نقلًا عن : أضواء على معالم في الطريق للمستشار سالم البهنساوي ص ٢٥.

(٣) جاء ذلك في محاضر تحقيقات نيابة أمن الدولة، القضية ١٢/ ١٩٦٥م ،انظر : الموتى يتكلمون ، لسامي جوهر، ص ١٣٣ وكذلك: أضواء على معالم في الطريق ، للمستشار سالم البهنساوي ، ص ٢٥ ، ٢٦ ، ومعالم في الطريق ص ٨ .

يناقض كلمة اللسان " [١].

١٥ـ النص الخامس عشر :

في فصل " لا إله إلا الله منهج حياة " من كتابه "معالم في الطريق" ، يقرر سيد - رحمه الله - أن العبودية لله وحده هي شطر الركن الأول في العقيدة الإسلامية المتمثل في شهادة : أن لا إله إلا الله ، وأن التلقي عن رسول الله ﷺ في كيفية هذه العبودية ، هو شطرها الثاني ، المتمثل في شهادة أن محمدًا رسول الله .

وأن " المسلم " هو الذي يتمثل هذه القاعدة بشطريها ويقوم بمقتضياتها المتمثلة ببقية أركان الإيمان وأركان الإسلام .

وأن " المجتمع المسلم " هو الذي تتمثل فيه تلك القاعدة ومقتضياتها جميعًا ، وبغير ذلك لا يكون مسلما .

ثم يخلص إلى أن ما سوى المجتمع المسلم بهذا المفهوم فهو جاهلي ، ويحدد المجتمع الذي يلحقه وصف الجاهلية فيقول: " إن المجتمع الجاهلي هو : كل مجتمع غير المجتمع المسلم ! وإذا أردنا التحديد الموضوعي قلنا : إنه كل مجتمع لا يخلص عبوديته لله وحده متمثلة هذه العبودية في التصور الاعتقادي ، وفي الشعائر التعبدية، وفي الشرائع القانونية، وبهذا التعريف الموضوعي تدخل في إطار " المجتمع الجاهلي" جميع المجتمعات القائمة اليوم في الأرض فعلا !! .

تدخل فيه المجتمعات الشيوعية :

أولا : بإلحادها في الله - سبحانه - وبإنكار وجوده أصلًا ورجع الفاعلية في هذا الوجود إلى " المادة " أو " الطبيعة " ..

ثانيا : بإقامة نظام العبودية فيه للحزب .. لا لله سبحانه ، وما ترتب على ذلك التصور والنظام من إهدار لخصائص الإنسان ، وتسويته بالآلة والحيوان ..

وتدخل فيه المجتمعات الوثنية ، وهي ما تزال قائمة في الهند واليابان والفلبين وأفريقية :

أولا : بتصورها الاعتقادي القائم على تأليه غير الله - معه أو من دونه - .

---

(١) في ظلال القرآن ،٢/ ٧٣٧ .

وثانيًا : بتقديم الشعائر التعبدية لشتى الآلهة والمعبودات التي تعتقد بألوهيتها .

وثالثًا : بإقامة أنظمة وشرائع المرجع فيها لغير الله وشريعته ، سواء استمدت هذه الأنظمة والشرائع من المعابد والكهنة والسدنة والسحرة والشيوخ ، أو استمدت من هيئات "مدنية علمانية " تملك سلطة التشريع .. ولها الحاكمية العليا باسم الشعب أو باسم الحزب أو باسم كائن من كان ..

وتدخل فيه المجتمعات اليهودية والنصرانية في أرجاء الأرض جميعًا :

أولا : بتصورها الاعتقاد المحرَّف، الذي لا يفرد الله – سبحانه – بالألوهية، بل يجعل له شركاء في صورة من صور الشرك، سواء بالبنوة أو بالتثليث، أو بتصوير الله سبحانه على غير حقيقته، وتصور علاقة خلقه به على غير حقيقتها ، كقولهم "عزيرابن الله" و " المسيح ابن الله " و " الله ثالث ثلاثة " و " يد الله مغلولة" و "نحن أبناء الله وأحباؤه " [1].

ثانيا : بشعائرها التعبدية، ومراسمها وطقوسها المنبثقة من التصورات الاعتقادية المنحرفة الضالة .

ثالثا : بأنظمتها وشرائعها، وهي كلها لا تقوم على العبودية لله وحده بالإقرار له وحده بحق الحاكمية ، بل تقيم هيئات من البشر لها حق الحاكمية العليا .. وقد وصمهم الله قديمًا بالشرك لأنهم جعلوا هذا الحق للأحبار والرهبان وقبلوا ما يشرعونه[2].

فأولى أن يوصموا اليوم بالشرك والكفر، وقد جعلوا ذلك لناس منهم ليسوا أحبارًا ولا رهبانًا .. وكلهم سواء .

وأخيرًا : يدخل في إطار المجتمع الجاهلي تلك المجتمعات التي تزعم لنفسها أنها "مسلمة"! ، وهذه المجتمعات لا تدخل في هذا الإطار لأنها تعتقد ألوهية أحد غير الله، ولا لأنها تقدم الشعائر التعبدية لغير الله أيضًا ، ولكنها تدخل في هذا الإطار :

– لأنها لا تدين بالعبودية لله وحده في نظام حياتها ، فهي – وإن لم تعتقد بألوهية

(١) ينظر الآيات : ٣ من سورة التوبة و ٧٣ ، ٦٤ ، ١٨ من سورة المائدة .
(٢) ينظر : الآية ٣١ من سورة التوبة

أحد إلا الله – تعطي أخص خصائص الألوهية لغير الله ، فتدين بحاكمية غير الله ، فتتلقى من هذه الحاكمية نظامها وشرائعها ، وقيمها وموازينها ، وعاداتها وتقاليدها، وكل مقومات حياتها تقريبًا ، والله يقوله عن الحاكمين ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [1]. ويقول عن المحكومين :﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ ﴾ .إلى أن يقول ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [2]، كما أنه – سبحانه – قد وصف اليهود والنصارى من قبل بالشرك والكفر والحيدة عن عبادة الله وحده ، واتخاذ الأحبار والرهبان أربابًا من دونه ، لمجرد أن جعلوا للأحبار والرهبان ما يجعله الذين يقولون عن أنفسهم أنهم " مسلمون " لناس منهم ! ، وأعتبر الله سبحانه ذلك من اليهود والنصارى شركا كاتخاذهم عيسى ابن مريم ربًا يؤلهونه ويعبدونه سواء ، فهذه كتلك – خروج من العبودية لله وحده ، فهي خروج من دين الله ، ومن شهادة أن لا إله إلا الله .

وهذه المجتمعات بعضها يعلن صراحة " علمانيته " وعدم علاقته بالدين أصلا، وبعضها يعلن أنه " يحترم الدين " ولكنه يخرج الدين من نظامه الاجتماعي أصلا ، ويقول أنه ينكر" الغيبية " ويقيم نظامه على " العلمية " باعتبار أن " العلمية" تناقض "الغيبية" ! وهو زعم جاهل لا يقول به إلا الجُهّال [3].

وبعضها يجعل الحاكمية الفعلية لغير الله ويشرع ما يشاء ثم يقول عما يشرعه من عند نفسه : هذه شريعة الله ! .. وكلها سواء في أنها لا تقوم على العبودية لله وحده، فإذا تعين هذا ، فإن موقف الإسلام من هذه المجتمعات الجاهلية كلها يتحدد في عبارة واحدة : " أنه يرفض الاعتراف بإسلامية هذه المجتمعات كلها وشرعيتها في اعتباره " والسبب أن الإسلام لا ينظر إلى العنوانات واللافتات والشارات التي

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٤٤ .

(٢) سورة النساء ، الآيات ٦٠– ٦٥ .

(٣) يراجع ما جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ في ظلال القرآن ٢/ ١١١٣ وما بعدها

تحملها هذه المجتمعات على اختلافها ، إنها كلها تلتقي في حقيقة واحدة هي : " أن الحياة فيها لا تقوم على العبودية الكاملة لله وحده ، وهي من ثم تلتقي – مع سائر المجتمعات الأخرى– في صفة واحدة صفة " الجاهلية " [١].

هذا النص – الذي نقلته على طوله – يعالج فيه سيد – رحمه الله – فكرة أساسية وهي: متى يكون المجتمع مسلما ؟ حيث يقرر: أن المجتمع يكون مسلما إذا كانت العبودية فيه خالصة لله وحده ، في الجانب الاعتقادي وفي الشعائر التعبدية ، وفي الشرائع القانونية على حدٍ سواء .وما لم يكن كذلك من المجتمعات فهو مجتمع غير مسلم أو " جاهلي " والنتيجة التي أوضحها أنه يدخل في إطار المجتمع الجاهلي :

١ – المجتمعات الشيوعية.

٢ – المجتمعات الوثنية.

٣– المجتمعات اليهودية والنصرانية المعاصرة .

٤ – المجتمعات التي تزعم لنفسها أنها مسلمة .

وهذه العبارة الأخيرة تمسك بها أناس وبنو عليها القول بأن سيد قطب يكفر المجتمعات المسلمة وعامة الناس بدون ضوابط [٢].

والذي يقرأ النص كاملًا يجد:

أولا : أن سيدًا – رحمه الله – ينطلق من فكرة أساسية عنده ، في اعتبار هذه المجتمعات جاهلية وهي : " أن الجاهلية ليست إسمًا لمرحلة تاريخية سابقة للإسلام وكفى، بل إنها تنطبق انطباقا حرفيًا على كل وضع – بصرف النظر عن اعتبارات الزمان والمكان – إذا كان هذا الوضع مشابهًا لتلك المرحلة التاريخية السابقة للإسلام، فكل وضع يتصرف في شؤون الناس بغير شريعة من الله هو جاهلية، ولا عبرة بعد ذلك باختلاف الأشكال التي يتمثل فيها هذا التصرف " [٣].

فهو يرى أن "الجاهلية " كما يصفها الله ويحددها قرآنه هي : حكم البشر

---

(١) معالم في الطريق ، فصل " لا إله إلا الله منهج حياة " ص ٩٢– ١٠٧ بتصرف .

(٢) ينظر : أضواء على عقيدة سيد قطب وفكره ، د/ ربيع المدخلي ص ٧٤ ، وما بعدها .

(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٢١٨ و ١٢٥٦ ،

للبشر، لأنها عبودية البشر للبشر ، والخروج عن عبودية الله ، ورفض ألوهية الله ، والاعتراف في مقابل هذا الرفض بألوهية بعض البشر ، وبالعبودية لهم من دون الله ، وبالتالي ليست فترة من الزمان ، ولكنها وضع من الأوضاع ، هذا الوضع يوجد بالأمس ، ويوجد اليوم ، ويوجد غدًا ، فيأخذ صفة الجاهلية ، المقابلة للإسلام .

والناس – في أي زمان وفي أي مكان – إما أن يحكمون بشريعة الله – دون فتنة عن بعض منها –ويقبلونها ويسلمون بها تسليماً، فهم إذن في دين الله ، وإما أن يحكمون بشريعةٍ من صنع البشرِ – في أي صورة من الصور– ويقبلونها فهم إذن في جاهلية ، وهم في دين من يُحكمون بشريعته وليسوا بحال في دين الله ، والذي لا يبتغي حكم الله يبتغي حكم الجاهلية ، والذي يرفض شريعة الله يقبل شريعة الجاهلية ويعيش في الجاهلية ، وهذا هو مفرق الطريق " [١].

فالجاهلية إذن عند سيد مرتبطة ارتباطًا مباشرًا بالحاكمية ، فإذا كانت الحاكمية في مجتمع ما ليست لله ، فهذا المجتمع في جاهلية .

ثانيا : أن وصف سيد للمجتمعات بالجاهلية هو وصف قاصر على المجتمع ومناهجه وقوانينه كشخصية معنوية مستقلة عن شخصيات أفراده ، ويتضح ذلك من خلال كلامه عن الجاهلية في مواضع مختلفة، حيث نجده أنه يفرق بين المجتمع كشخص اعتباري أو معنوي ، يتمثل في المؤسسات الدستورية ، وبين الأفراد الذين يعيشون فيه .

فالمجتمع والأمة يحكم لها بالإسلام إذا كان نظام حياتها في جميع جوانبها إسلاميًا، أي قائمًا على شريعة الله وحده ، فإذا لم يكن المجتمع والأمة كذلك فلا تسمى إسلامية لعدم توفر مقومات هذا الوصف وتوصف بالجاهلية .

لكن هذا لا يمنع من وجود الأفراد والمسلمين ، لأنه فيما يخص الفرد يكون الاحتكام إلى عقيدته وخلقه ، وفيما يخص الأمة والمجتمع يكون الاحتكام إلى نظام حياتها.

وبالتالي فوصف المجتمع بالجاهلية أو الكفر لا يلحق كل الأفراد ، إذا كانوا

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٩٠٤ .

متمسكين بالإسلام كما أن وصف المجتمع بالإسلام لا يعني أن كل فرد فيه يكون مسلمًا ، فالمجتمعات والدول والأنظمة غير الأفراد فيمكن أن يكون المجتمع أي النظام والدولة كافرًا وأكثر مواطنيها مسلمون، والعكس قد يكون المجتمع أي النظام والدولة مسلمة وفيها غير مسلمين، وهذا ما عناه سيد من كلامه عن عدم وجود الأمة المسلمة أو المجتمع المسلم اليوم [١]، فالذي يحدد الصفة العقائدية لمجتمع ما هو العلاقات التي تنظم شؤون الأفراد ، لا مجموع صفة الأفراد [٢].

ثالثًا : إذا تقرر ما سبق نستطيع أن نفهم كلام سيد عن جاهلية المجتمعات هو جاهليتها في نظمها وأخلاقها وسائر شؤون حياتها ، فوصفها بالجاهلية مرتبط بحاكمية العباد للعباد ، ورفض حاكمية الله المطلقة للعباد ، وهذا الرفض لحاكمية الله المطلقة للعباد وهو كفر صريح ، وقد وضح سيد حيثيات هذا بقوله : " وهذه المجتمعات بعضها يعلن صراحة علمانيته " أي " لا دينيته " وعدم علاقته بالدين أصلًا ، وبعضها يعلن أنه يحترم الدين ولكنه يخرج الدين من نظامه الاجتماعي أصلا .. وبعضها يجعل الحاكمية الفعلية لغير الله ، ويشرع ما يشاء ثم يقول عما يشرعه هذه شريعة الله ، وكلها سواء في أنها لا تقوم على العبودية لله وحده ، وإذا تعين هذا فإن موقف الإسلام من هذه المجتمعات الجاهلية كلها يتحدد في عبارة واحدة : إنه يرفض الاعتراف بإسلامية هذه المجتمعات كلها وشرعيتها في اعتباره، لأن الإسلام لا ينظر إلى العنوانات واللافتات والشارات التي تحملها .. لأنها كلها تلتقي في حقيقة واحدة هي أن الحياة فيها لا تقوم على العبودية الكاملة لله وحده ، فهي جميعًا تشترك في صفة " الجاهلية " [٣].

فحكمه على المجتمعات الإسلامية اليوم بالجاهلية ليس بناءً على صفة أفرادها، وإنما على الأنظمة والمناهج والتشريعات والمبادئ والأعراف الموجودة اليوم وأغلبها قائمة على غير شريعة الله فهي إذن جاهلية. ولا بد من التفريق بين ثلاثة أمور في كلام سيد :

---

(١) الموتى يتكلمون ، لسامي جوهر ، ص ١٣٣

(٢) في ظلال القرآن في الميزان ، د/ صلاح الخالدي . نقلًا عن مقال للشيخ / فيصل مولوي ، في مجلة الشهاب ، العدد ٣ سُنَّة ١٣٩٣هـ.

(٣) معالم في الطريق ،ص١٠٣ .

١- النظام الذي يحكم المجتمع .

٢- المجتمع والأفراد بصفتهم الجماعية

٣- الأفراد بصفتهم الفردية . وبيان ذلك كما يلي:

الأمر الأول : النظام الذي يحكم المجتمع والأمة ، وهو مجموعة القوانين والتشريعات والمبادئ والنظم التي تصرف شؤون الناس ،والنظم القائمة اليوم في المجتمعات نظم جاهلية قائمة على غير شريعة الله كما يقول سيد : لأن " بعضها يعلن صراحة علمانيته وعدم علاقته بالدين أصلًا وبعضها يقصر الدين على بعض جوانب الحياة فقط ، وبعضها يجعل الحاكمية الفعلية لغير الله ويعطي حق التشريع المطلق لغير الله سبحانه أفرادًا أو هيئات .

الأمر الثاني: المجتمع والأفراد (بصفتهما الجماعية لا الفردية) ممن يعيشون في ظل الأنظمة وهؤلاء يحكم عليهم بالجاهلية والكفر إذا كانوا راضيين بحكم غير الله ، ويقبلون التحاكم إلى غير الله ، ويرفضون شريعة الله .

وهذه الضوابط في تكفير المجتمع بصفته الجماعية واضحة في كلام سيد السابق وغيره . حيث يقول في النص السابق : " والناس في أي زمان وفي أي مكان – إما أن يحكمون بشريعة الله – ويقبلونها ويسلمون بها تسليما ، فهم إذن في دين الله ،وإما أن يحكمون بشريعة من صنع البشر – في أي صورة من الصور – ويقبلونها ، فهم إذن في جاهلية ، وهم في دين من يحكمون بشريعته ، وليسوا بحال في دين الله ، والذي لا يبتغي حكم الله يبتغي حكم الجاهلية ، والذي يرفض شريعة الله يقبل شريعة الجاهلية ويعيش في الجاهلية وهذا هو مفرق الطريق" [١].

ويقول أيضًا : مبينًا أن شرط تكفير المجتمع هو رضاه بحكم غير الله وإرادته التحاكم إلى الطاغوت في ظلال قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ ﴾[٢] : "

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٩٠٤ .

(٢) سورة النساء ، الآية ٦٠ .

ألم تر هذا العجب العاجب ، قوم يزعمون الإيمان ، ثم يهدمون هذا الزعم في آن؟!، قوم يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك .. ثم لا يتحاكمون إلى ما أنزل إليك ..؟ إنما يريدون أن يتحاكموا إلى شيء آخر ، وإلى منهج آخر وإلى حكم آخر ، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت الذي لا يستمد مما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ...وهم لا يفعلون هذا عن جهل ولا عن ظن ، إنما يعلمون يقينًا ويعرفون تمامًا أن هذا الطاغوت محرم التحاكم إليه، ﴿ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ ﴾ فليس في الأمر جهالة ولا ظن،بل هو العمد والقصد.." [1].

ويقول أيضا: " وحين تنظر إلى وجه الأرض اليوم ، فإننا نرى الجاهلية والشرك – ولا شيء غير الجاهلية والشرك – إلا من عصم الله ، فأنكر على الأرباب الأرضية ما تدعيه من خصائص الألوهية ولم يقبل منها شرعًا ولا حكما.. إلا في حدود الإكراه" [2].

فسيد يشترط لإطلاق حكم الكفر على المجتمع إرادة التحاكم إلى الطاغوت ، والرضى بغير حكم الله ، وهذا هو ما اتفق عليه علماء المسلمين في جميع الأمصار والأعصار [3].

الأمر الثالث : الأفراد بصفتهم الفردية ، وهؤلاء يكون الحكم عليهم –كما يقول سيد –من خلال عقيدة كل فرد وخلقه ، فمن أعلن الإسلام باللسان ، ولم يظهر ما يوجب كفره لا نستطيع أن نحكم عليه بالكفر إذا لم يكن هناك دليل يناقض قول اللسان [4].

* فهذه التفرقة بين الأمور الثلاثة واجبة لفهم فكر الرجل ومنهجه في التكفير على حدٍ سواء.

وبسبب عدم التفرقة بينها وقع من وقع في الخلط بين الحكم على الأفراد المعينين بالكفر وبين الحكم على النظام الذي يحكم بغير شريعة الله والمجتمع الذي يتقبل

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٦٩٤ بتصرف يسير .. وينظر أيضًا ٢/ ٨٩٥ ، مقومات التصور الإسلامي ص ١٦٩، ١٨٠.
(٢) في ظلال القرآن ، ٣/ ١١٩٨.
(٣) مقومات التصور الإسلامي ، ص ١٢ من مقدمة محمد قطب للكتاب .
(٤) ينظر كلام سيد في : في ظلال القرآن ٢/ ٧٣٧ ، والموتى يتكلمون لسامي جوهر ، ص ١٠٣، نقلًا عن محاضر التحقيق

ويرضى غير شرع الله فادعى أن سيد يكفر المجتمعات المسلمة وأعيان الناس بدون ضوابط [١].

الفرع الثاني : حقيقة نسبة تكفير المسلمين إلى سيد قطب :

ينطلق القائلون بأن سيد قطب يكفر المسلمين عمومًا بدون ضوابط من منطلقات هي :

أولا : النصوص التي يصف فيها سيد المجتمعات الإسلامية بالجاهلية والردة ، أو ينفي عنها صفة الإسلام .

ثانيا : أقوال تنسب فكرة التكفير إلى كتابات سيد ، سواءً أقوال جماعات التكفير التي اتخذت من بعض الألفاظ والنصوص عند سيد متكئًا لها ، أو بعض الشخصيات التي نسبت التكفير إلى كتابات سيد.

ويمكن بيان حقيقة الأمرين فيما يلي :

أولا : أما النصوص التي يستند إليها القائلون بأن سيد قطب يكفر المسلمين بدون ضوابط ، فقد تبين لنا من خلال استعراض النصوص السابقة وعددها خمسة عشر نصًا ، والوقفات التي تلت كل نص ما يأتي :

١ - أن كلام سيد كان منصبًا في أغلبها على وصف واقع المسلمين الأليم المتمثل في الجهل بحقيقة " لا إله إلا الله " وهي حقيقة يجدها كل من قرأ بتجرد ، ويؤكد هذه الحقيقة أيضًا كل من عرفه وعاصره ومنهم أخوه محمد قطب ؛ حيث يقول : "إن كتابات سيد قطب قد تركزت حول موضوع معين ، هو بيان المعنى الحقيقي لـ " لا إله إلا الله " شعورًا منه بأن كثيرًا من الناس لا يدركون هذا المعنى على حقيقته، وبيان المواصفات الحقيقية للإيمان كما وردت في الكتاب والسُّنَّة ، شعورًا منه بأن كثيرًا من هذه المواصفات قد أهمل أو غفل عنه الناس ، ولكنه مع ذلك حرص حرصًا شديدًا على أن يبين أن كلامه هذا ليس مقصودًا به إصدار أحكام على الناس، وإنما المقصود به تعريفهم بما غفلوا عنه من هذه الحقيقة ، ليتبينوا لأنفسهم:

---

(١) ينظر في الموضوع أيضًا : مجلة المنار الجديد العدد١٩ ذو الحجة ١٤٢٥هـ ، مقال بعنوان هوية الفرد وهوية المجتمع ، نظرات في فكر سيد قطب ، للدكتور طارق عبد الحليم ص ١١٣ .

إن كانوا مستقيمين على طريق الله كما ينبغي ، أم أنهم بعيدون عن هذا الطريق ، فينبغي عليهم أن يعودوا إليه .

ولقد سمعته بنفسي أكثر من مرة يقول : " نحن دعاة ولسنا قضاة " إن مهمتنا ليست إصدار الأحكام على الناس ، ولكن مهمتنا تعريفهم بحقيقة لا إله إلا الله ، لأن الناس لا يعرفون مقتضاها الحقيقي ، وهو التحاكم إلى شريعة الله .

كما سمعته أكثر من مرة يقول : " إن الحكم على الناس يستلزم وجود قرينة قاطعة لا تقبل الشك وهذا أمر ليس في أيدينا ، ولذلك فنحن لا نتعرض لقضية الحكم على الناس، فضلا عن كوننا دعوة ولسنا دولة ، دعوة مهمتها بيان الحقائق للناس، لا إصدار الأحكام عليهم " [١].

وذكرت زينب الغزالي أيضًا بعد حوار لها مع سيد ، استغرابه من فهم البعض لكلامه على أنه تكفير للأفراد بأعيانهم ، وأن هذا فهم خاطئ سيوضحه في الجزء الثاني من المعالم [٢]، وأن كلامه كان لبيان حقيقة أن المجتمعات ابتعدت عن الإسلام إلى درجة جعلتها تفقد هذه الصفة [٣].

وقد جاء في محاضر التحقيق عن سيد قوله : " وقد قلت له [٤]- إننا لم نكفر الناس، وهذا نقل مشوه ، إنما نحن نقول : إنهم صاروا من ناحية الجهل بحقيقة العقيدة وعدم تصور مدلولها الصحيح والبعد عن الحياة الإسلامية ، إلى حال تشبه حال المجتمعات الجاهلية ، وإنه من أجل هذا ، لا تكون نقطة البدء في الحركة هي قضية إقامة النظام الإسلامي ، ولكن تكون : إعادة زرع العقيدة والتربية الأخلاقية الإسلامية ، فالمسألة تتعلق بمنهج الحركة الإسلامية أكثر مما تتعلق بالحكم على الناس" [٥].

---

(١) رسالة من محمد قطب إلى صهره كمال السنانيري حول فكر الشهيد ، نشرت في مجلة المجتمع الكويتية العدد ٢٧١ شوال ، ١٣٩٥هـ ، ونص الرسالة في كتاب " الحكم وقضية تكفير المسلم ، لسالم البهنساوي ، ص ٢٧٤. وقد ذكر لي هذا بنصه عند مقابلتي له بمكة .

(٢) أعدمت أصول هذا الكتاب قبل نشره ، انظر سيد قطب (من أعلام المسلمين) ، د/ صلاح الخالدي ، ص ٣٢٢

(٣) من حوار مع زينب الغزالي ، في مجلة المجتمع الكويتية ، العدد ٦٥٦ لعام ١٤٠٢، ص٢١ ، وينظر في ظلال القرآن في الميزان ، د/ صلاح الخالدي ص ٢٢٧.

(٤) أي عبدالرؤوف أبو الوفاء مندوب الإخوان إليه بعد البلبلة التي حصلت في أوساط الأخوان حول فكر سيد.

(٥) لماذا أعدموني ص ٣٦، ٣٧ .

٢- في بعض النصوص : كان الحديث عن تكفير من فعل بعض الأعمال الكفرية على سبيل العموم استنادًا إلى النص القرآني الذي يتحدث عن الموضوع ، كما في حديث سيد عن تكفير مستحل الربا وكذا الحاكم بغير ما أنزل الله ، والمحكوم بغير ما أنزل الله إذا كان مريدًا راضيًا بذلك رافضًا لحكم الله ، حيث يجد القارئ في كلام سيد ضوابط عند إطلاقه لفظ الكفر والشرك تبين مراده ، كما سبق [١].

٣- بالنسبة لتكفير أعيان الناس وأفرادهم في المجتمع المسلم ، فالظاهر من النصوص السابقة أن سيدًا - رحمه الله- قيد ذلك بأمور منها :

أ - بلوغ الحجة للمعين وفهمها : حيث يقول : " فكل من بلغه هذا القرآن من الناس ، بلغة يفهمها ويحصل منها محتواه ، فقد قامت عليه الحجة به ،وبلغه الإنذار، وحق عليه العذاب إن كذب بعد البلاغ ". [٢]

ب- إرادة الكفر والرضا به وعدم الإكراه : حيث يقول : " وحين ننظر إلى وجه الأرض اليوم - في ضوء التقريرات الحاسمة - فإننا نرى الجاهلية والشرك - ولا شيء غير الجاهلية والشرك - إلا من عصم الله ، فأنكر على الأرباب الأرضية ما تدعيه من خصائص الألوهية ، ولم يقبل منها شرعًا ولا حكما ... إلا في حدود الإكراه" [٣].

ويقول أيضًا : " على أنه بالرجوع إلى أصل القضية ، وهي أن الحاكمية وحق تعبيد الناس وتشريع الشرائع لهم ، هي أولى خصائص الألوهية ، التي لا يدعيها لنفسه مؤمن ولا يقره عليها مؤمن بالله كذلك ، وأن الذي يدعي حق الحاكمية ، وحق تعبيد الناس لما يشرعه لهم من عند نفسه ، إنما يدعي حق الألوهية ، وأن الذي يقره على هذا الادعاء أو يحتكم إلى ما يشرعه للناس من عند نفسه - إلا مكرهًا ، كارهًا، منكرًا باليد أو اللسان أو القلب - فإنما يقره على ادعاء صفة الألوهية ، وأن من يرفض تحكيم شريعة الله في كل شؤون الحياة ، إنما يرفض الاعتراف بألوهية الله سبحانه ولو في جانب من جوانب هذا الكون ، وهو حياة البشرية - وأنه من يقره

(١) ينظر النصوص السابقة .
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٥٦.
(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١١٩٨ .

على هذا الرفض فإنما يشترك معه في رفض ألوهية الله سبحانه في هذا الجانب - وأن الذي يرفض ألوهية الله لا يمكن أن يقال عنه إنه مسلم لله - مما يزعم ذلك بلسانه - طالما أن هذا الزعم مصحوب بفعل يناقض مدلوله ، وهو إرادة التحاكم إلى الطاغوت وعدم التحاكم إلى شريعة الله ، ومن باب أولى الحكم بالطاغوت ، وعدم الحكم بما أنزل الله ... وأن الحكم بما أنزل الله لا يتحقق إلا بالحكم بنص شريعة الله، والرجوع فيما يختلف فيه مما ليس فيه نص إلى الله والرسول لا إلا أي مصدر آخر سواه .. " [١].

والمتأمل في النص يجد: أن سيدًا وضع قيودًا وضوابط للحكم بكفر الشخص منها :

١- الرضاء والإقرار بالكفر .

٢- إرادة التحاكم إلى غير الله .

٣- رفض حكم الله .

٤- وقبول حكم غير الله من غير إكراه ، وأنه يستثنى الكاره والمكره ، والمنكر بيده أو بلسانه أو بقلبه من هذا الحكم ، وهو ما عليه أهل السُّنَّة والجماعة من اعتبار مسألة الرضا وانعدام الإكراه سببًا في التكفير لمن فعل مكفرًا .

وقد سبق معنا أن سيد - رحمه الله - يفرق بين تكفير المجتمع بصفته الجماعية كنظام ومؤسسات وقوانين وشرائع ، وبين أفراد هذا المجتمع ، حيث يرى أن الفرد المسلم يحكم له بالإسلام إذا نطق بالشهادتين ولم يعمل ما يناقضها ، والحكم على الفرد بناءً على عقيدته وعمله [٢].

ثانيا : شهادة بعض الأفراد على سيد بتكفير المسلمين :

باستقراء ما كُتب حول سيد نجد أن بعضهم ينسب إليه تكفير عموم المسلمين وأعيانهم بدون ضوابط ، مستدلا بأقوال لأفراد على أنها شهادات على سيد تثبت ما نسب إليه ، وأصحاب هذا الأقوال مشارب شتى :

---

(١) مقومات التصور الإسلامي سيد قطب ، ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(٢) انظر : الملاحظات على النص الخامس عشر

١- إما كتاب من التيار العلماني أو الاشتراكي الذي يحمل العداء لكل ما هو إسلامي .

٢- وإما جماعات التكفير والهجرة بناء على فهمهم لنصوص من كلام سيد قطب.

٣- وإما بعض رموز وأفراد حركة الإخوان المسلمين[١]،أو بعض المندسين فيها[٢].

٤- وإما بعض المنتمين إلى التيار السلفي [٣].

وكلام هؤلاء كلهم في شهاداتهم على سيد بالتكفير ليس فيها نص واحد يدل على أن أحدًا منهم سمع سيدًا - رحمه الله - يقول " إن أفراد المسلمين اليوم كفارًا بالتعيين " ، وإنما جميعهم ينسبون هذا الأمر إلى سيد بناءً على فهمهم للنصوص التي سبق ذكرها ، والتي يطلق فيها سيد وصف الجاهلية على المجتمعات الإسلامية أو ينفي صفة الإسلام عنها أو عن بعض الأفراد ، كما سبق بيانه من خلال استعراض تلك النصوص .

وفَهْمُ هؤلاء ليس حجة كافية لإثبات التهمة، بل إن المتأمل في كلامهم جميعًا يجد أن وراء ذلك:

- إما العداء الديني كما هو حال العلمانيين .

- أو الخلاف التنظيمي أو الفكري مع سيد كما هو حال بعض من تكلم فيه من الإخوان أو السلفيين .

- أو عدم فهم مقصود كلامه وضوابطه لعدم جمعه للنصوص المتفرقة ، أو غير ذلك من الأسباب .

وإذا كان هؤلاء يستندون إلى شهادة بعض الأفراد في نسبة التكفير لسيد بناءً على فهمهم لعباراته ، فإن هناك أيضًا عددًا من العلماء المعاصرين له نفوا هذا التهمة استنادًا إلى صريح كلامه لا إلى مفهوم كلامه ومنهم :

---

(١) منهم: فريد عبد الخالق ،في كتاب " الإخوان المسلمون في ميزان الحق "ص ١١٥ . ود/ يوسف القرضاوي ، في أولويات الحركة الإسلامية ص١١٠ .ومصطفى مشهور.

(٢) ومنهم : على عشماوي ، في كتابه التاريخ السري للإخوان المسلمين ص ٨٠ ، ١١٢ .

(٣) كأبي عزة وكان من قيادة الإخوان سابقًا ، و الدكتور/ ربيع المدخلي وغيره ، ينظر: مجلة الشهاب اللبنانية ، عدد٢١ بتاريخ ١٦/ ٢ / ١٣٩٣هـ ، وأضواء على عقيدة سيد قطب ، ربيع المدخلي ص ٧٤ وما بعدها.

١- أخوه الشيخ محمد قطب - حيث يقول عن سيد : " ولقد سمعته بنفسي أكثر من مرة يقول : نحن دعاة ولسنا قضاة ، إن مهمتنا ليست إصدار الأحكام على الناس ، ولكن مهمتنا تعريفهم بحقيقة لا إله إلا الله ، لأن الناس لا يعرفون مقتضاها الحقيقي وهو التحاكم إلى شريعة الله " .

كما سمعته أكثر من مرة يقول : " إن الحكم على الناس يستلزم وجود قرنية قاطعة لا تقبل الشك وهذا أمر ليس في أيدينا ، لذلك نحن لا نتعرض لقضية الحكم على الناس فضلا عن كوننا دعوة ولسنا دولة ، دعوة مهمتها بيان الحقائق للناس ، لا إصدار الأحكام عليهم" [١].

٢- الحاجة زينب الغزالي - رحمها الله - : " سئلت هل كان فكر سيد هو تكفير المجتمع - أي أفراده - قالت: " هذا وهمٌ توهمه بعض تلاميذ سيد ، لقد جلست معه عندما سمعت بتلك الشائعة ، وقلت له : إن منزلتي عند السيدات المسلمات تجعلهم يحترمنني احترامًا عظيما ، ولكنهم مستعدون أن ينسفوا كل هذا الاحترام، إذا علموا أنني أقول عنهم أو عن أحد من أقاربهم : إنهم كفار ، واستغرب نفسه هذا القول ، وتبين أن هذا فهم خاطئ لما كتبه ، وبين أنه سيوضح هذا في الجزء الثاني من المعالم . إن سيدًا لم يكن يكفر الأفراد ، بل كان يرى أن المجتمعات ابتعدت عن الإسلام إلى درجة جعلتها تفقد هذه الصفة " [٢].

٣- المرشد العام الثالث للإخوان المسلمين - عمر التلمساني [٣]- رحمه الله - حيث يقول : " وتمتاز مؤلفاته - أي سيد- بالنقمة على الظلم في كل مظاهره ، والحرص على رفع المعاناة عن كل الطبقات وما أراد الشهيد الأستاذ سيد قطب في يوم من الأيام أن يكفر مسلما ، .. وكثرة ترداده " للمجتمع الجاهلي " لم يقصد بها تكفير المجتمع ، ولكن تشديد النكير على الظلمة والطغاة والمستغلين ... وهو

---

(١) مجلة المجتمع الكويتية ، العدد ٢٧١ عام ١٣٩٥هـ ، نقلًا عن كتاب الحكم وقضية تكفير المسلم ، لسالم البهنساوي ص٢٧٤.

(٢) مجلة المجتمع الكويتية ، العدد ٥٦٥، جماد آخر ١٤٠٢هـ ، ص ٢١، وكذلك فكر سيد قطب ، لمحمد أبو صعيليك ص٨٨.

(٣) هو:عمر بن عبد الفتاح التلمساني ،ولد في القاهرة سُنَّة ١٣٢٢هـ ،تخرج من كلية الحقوق وعمل محاميا،عرف بالزهد والتواضع والجرأة في قول الحق ، تولى منصب المرشد العام للإخوان بعد الهضيبي ، توفي سُنَّة ١٤٠٦هـ ، انظر : من أعلام الحركة الإسلامية للعقيل ،ص٥-١٠ ..

أسلوب تعرفه اللغة العربية، والذين يعرفون الشهيد سيد قطب ، ودماثة خلقه ، وحجم أدبه ، وتواضعه ورقة مشاعره يعرفون أنه لا يكفر أحدًا [١].

الأستاذ / عبد العليم خفاجي ، حيث يقول : " لم يستطع فريق من الشباب أن يروا صلة بين طاعة قلوب هذه الوحوش الضارية وبين صحة انتسابها إلى الإسلام في إنسانيته المشرقة بالنور، فجرت من بعضهم أحكام تصف هؤلاء الظلمة من الحكام بالكفر، هم والمشاركين والساكتين عن الحق من مجموع هذه الأمة ، واخذوا يسيئون فهم ما ورد في كتب الشهيد سيد قطب لتدعيم موقفهم ، وحملنا الأخ إبراهيم الطناني المرحل إلى سجن طرة للعلاج رسائل للأستاذ سيد قطب بتفاصيل تفكير وسلوك هؤلاء الأخوة فأرسل منكرا عليهم ذلك قائلا : إنهم قد فهموني خطأ، وفي مرة ثانية قال غاضبًا : لقد وضعت حملي على حمارٍ أعرج " [٢].

٤- الدكتور عمر الأشقر[٣] ، حيث يقول : " ولم يتفق الإخوان على أن سيدًا كان يصرح في لقاءاته وجلساته وأحاديثه بتكفير المجتمع، ولكن كثيرًا من كتاباته قد يُستنتج منها تكفير المجتمعات والأفراد ، وتلك الاستنتاجات أمر طبيعي لتفاوت الأفهام أحيانًا، ولتعمق المؤلف في معنى معين للتأكيد على فكرة ما ... كما أن سيدا نفى هذا الرأي عن نفسه أثناء التحقيق .. " [٤].

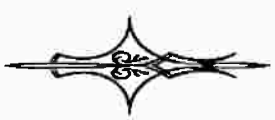

(١) ذكريات لا مذكرات ، عمر التلمساني ، دار الطباعة الإسلامية ، القاهرة ، طبعة عام ١٩٨٥م، ص ٢٨١ ، وسيد قطب للخالدي ص ٣٩٠.

(٢) حين غابت الشمس ، لعبد المنعم خفاجي ، دار الوفاء ، القاهرة ،ب .ت ،ص٤٥٤ ، وفكر سيد قطب لمحمد أبو صعيليك ص ٨٨ .

(٣) هو :عمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر، من علماء أهل السُّنَّة المعاصرين ، ولد في نابلس بفلسطين سُنَّة ١٩٤٠م، درس في الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية ، وحصل على الدكتوراه من الأزهر ،له أكثر من ثلاثة عشر مؤلفًا في علوم الشريعة ، يعمل أستاذًا في الجامعة الأردنية . المصدر : موقع الشيخ الأشقر على الانترنت .

(٤) مجلة المجتمع الكويتية عدد ٥٦٥ ، جماد آخر١٤٠٢ – ص ٤٢، ٤٣، وفكر سيد قطب ، لمحمد أبو صعيليك ص ٩٠.